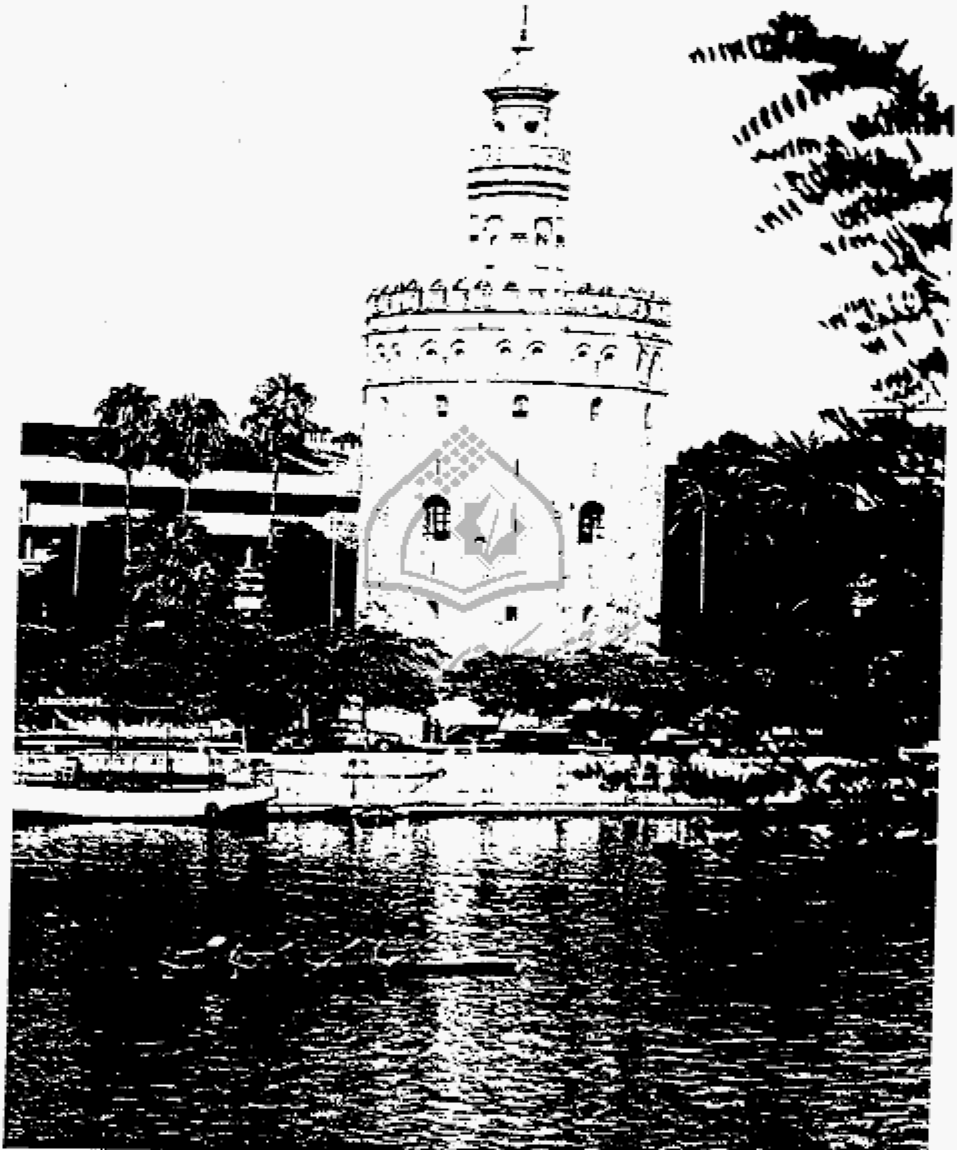
دراسات أندلسية



الحصن الذهبي
من العهد الموحّدي

ربيع الأول 1420 — عدد 22 — جوان 1999

مجلّة دراسات أندلسيّة

مجلّة علميّة مختصّة مُحكّمَة في الدّراسات المتعلّقة بإسبانيا الإسلاميّة

* * * * *

تصدر المجلّة مرّتين كلّ سنة في جانفي وجوان.

تسدّد قيمة الاشتراك عن طريق حوالة بريديّة في الحساب الجاري 94-543 تونس، أو بواسطة حوالة بنكيّة (وفي هذه الحالة يكون مقابل التحويل البنكي على حساب المشترك).
توجّه المراسلات باسم المجلّة إلى العنوان التالي :مجلّة دراسات أندلسيّة.

ص.ب. رقم 51-1008 تونس . باب منارة . الجمهورية التونسيّة . تليفون : 585.616.

مجلّة
دراسات أندلسيّة

العدد الثاني والعشرون

ربيع الأوّل 1420 / جوان 1999

طبع بالمطبعة المغاربيّة للطّباعة والنّشر والإشهار

(1000 نسخة)

تصميم « دار أبونواس للتّصميم والنّشر والتّوزيع »

الهاتف : 704.300

تونس

فهرس

تصدير

حوار الثّقافات

بين إسبانيا وتونس تاريخ مشترك، يمتدّ على فترة طويلة موغلة في القدم، تبدأ منذ الحملات الفنيقيّة في حوض البحر الأبيض المتوسّط. فمنذ ذلك الوقت يعيش الشعبان الإسباني والتّونسي في اتصال مستمرّ وترابط دائم.

تمثّل تونس بالنّسبة إلى الإسبان مرجعا أدبيا بفضل سارفنتس وفي نفس الوقت مرجعا تاريخيّا : ألم تحتضن الإيالة التّونسيّة قسما من الشّعب الإسباني المسلم منذ القرن 13/7 إلى القرن 16/10 : وهم الموريسكيّون الذين أطردوا من وطنهم نتيجة للتعصّب الدّيني الذي كان سائدا في ذلك الوقت ؟ لقد وجدوا في إيالة تونس وطنا ثانيا لهم. وتجسّم إسبانيا بالنّسبة إلي التّونسيّين مرجعًا ثقافيا أصيلا منغرسا في أعمق أعماق الخيال الجماعي، وشاهدًا على عصر بلغت فيه الحضارة العربيّة الإسلاميّة الأوج.

إنّ الجذور التاريخية هي مرجعيّة أساسية لتفاهم الشعوب، وفي الوقت الرّاهن تمثل إسبانيا وتونس قطبين للتطوّر في مجال حوض البحر الأبيض المتوسّط وتواجهان – بثبات وثقة – التحدّيات التّي تفرضها الحداثة.

إنّ العولمة – وهي سمة العصر الحالي – تفرض علينا حوارا بين الثقافات. وفي هذا الميدان، نحن إسبانًا وتونسيّين، ألا يحقّ لنا أن نفتخر بأنّنا متقدّمون كل التقدّم في هذا الطريق القويم، عارفين بالغيريّة، معترفين بأحقّية الآخر في أن يكون كما هو، وهذا في نفس الوقت الذي تقام فيه الجسور بين المجتمعين الإسباني والتّونسي، إنّ هذا لهدف نبيل وأساسي.

إنّ إسبانيا وكلّ ما هوإسباني له في اللّغة الإسبانية تراث أصيل يتجاوز مستوي التراث القومي البسيط ليعانق التّراث الإنساني الخالد في أجلى مظاهره.

وفي الوقت الحاضر إنّ المدّ القشتالي في تونس هو رمز لهذا الحوار بين الثّقافات الذي أشرت إليه آنفا. وهنا أودّ أن أقدّم بعض الأرقام الدّالة على ذلك : بالنسبة إلى السنّة الجامعية الحالية هناك 12 ألف تلميذ في المعاهد الثانوية التونسية وأكثر من 60 أستاذا مختصا في اللّغة الإسبانية لتدريسهم. وهؤلاء الأساتذة هم جزء من رجال التعليم في وزارة

التربية التونسية. وهناك - على الأقل - خمسة مراكز جامعية تونسية تُدرّس فيها الإسبانية، وتنتهي الدراسة بالحصول على شهادتين في اللّغة الإسبانية. ومنذ أشهر - ولتلبية رغبة التونسيّين المتزايدة في تعلم اللّغة الإسبانية - خصّصت الإذاعةُ التونسية برنامجا باللّغة الإسبانية منتظما. وتقدّم الحكومة الإسبانية منحا للطّلبة التونسيّين وتوفّر ثلاثة أساتذة معيدين في الجامعات التونسية. هذه الآفاق المشعة لتعلّم اللّغة الإسبانية التي ذكرتها، ولو باختصار، لها جذور : إنّ من بين المؤسّسين لتعليم الإسبانية بتونس الأستاذ المتميّز خوسي ماتيو ساستري. وبمناسبة ذكرى وفاته تنظّم هذه الندوة. لقد جمع الأستاذ ساستري مع مسيرته الفكرية المتألقة، الفضل في كونه الحاثّ على تعلّم اللّغة الإسبانية بتونس، في وقت كانت فيه الإعانات المؤسّستيّة تكاد تكون منعدمة. وكانت شجاعة المرء بمفرده كافية لغرس حبّ اللّغة الإسبانية في نفوس الأجيال التونسية الناشئة. إنّ ما أصبح للّغة الإسبانية من مكانة في تونس يعود الفضل فيه إلى الأستاذ ساستري، لذا كان من الشرعيّ أن تقام هذه الندوة إحياء لذكراه. إنّ سفارة مملكة إسبانيا ومعهد سارفانتس أخذا على نفسيهما التنويه بقيمة هذا الأستاذ، وهوبذلك جدير، سواء بمناسبة انعقاد هذه الندوة أوالندوات التي ستنعقد في المستقبل.

لقد كان الأستاذ ساستري مربّيا قبل كلّ شيء، مكوّنا لجيل من الأساتذة. وبهذه المناسبة أريد أن أحيّي كلّ الأساتذة التونسيّين المدرّسين للّغة الإسبانية. إنّ تعلم الإسبانية ما كان له أن يصل إلى هذا المستوى المرموق لولا رغبتهم الملحّة وجهودهم المضنية. وفي نفس الوقت أنا جدّ مسرور أن أكون مع من سيمثلون مستقبل اللّغة الإسبانية في هذا البلد، وأعني الطلبة الذين أرجو لهم كلّ النّجاح. إنّي أعلن رسميا افتتاح (*) هذه النّدوة بمناسبة إحياء ذكرى الأستاذ ساستري، وأرجوأن يكون يوما فكريا واعدا ولقاء ممتعا بين عشّاق لغة سرفانتس.

سعادة سفير إسبانيا بتونس السّيد خوسي انطونيولوبث ثاثون

تعريب: د. جمعة شيخة، مدير المجلّة.

(*) افتتاح ندوة «خوسي ماتيوساستري» - معهد سرفنتس بتونس - الخميس 1999/04/15.

القصة الأندلسية
نماذج مع دراستها دراسة تطبيقية

د. عبد الله بن علي بن ثقفان [1]، السعودية

I – النماذج – المختارات –

1- لذريق يأخذ ابنة يوليان :

كان من سير الأعاجم بالأندلس أن يبعث أكابرهم بأولادهم إلى بساط الملك ليتأدبوا بأدبه، وينالوا من كراماته حتى إذا ما بلغوا أنكح بعضهم بعضا استئلافا لآبائهم، وحمل صدقاتهم وتولى تجهيز إناثهم إلى أزواجهن، فاتفق أن فعل ذلك يليان عامل لذريق على سبتة، وجه ابنة له بارعة الجمال تكرم عليه، فوقعت عين لذريق عليها فأعجبته فاستكرهها على نفسها واحتالت حتى أعلمت أباها بذلك سرا بمكاتبة خفية، فأحفظه شأنها وقال : ودين المسيح لأزيلن سلطانه ! وكان امتعاضه من فاحشة ابنته السبب لفتح الأندلس بالذي سبق من قدر الله سبحانه، ثم إن يليان ركب بحر الزقاق من سبتة في أصعب الأوقات في شهر يَنيَر، وأقبل حتى احتل بطليطلة حضرة لذريق، فأنكر عليه مجيئه في ذلك الوقت وسأله عن السبب في ذلك، فذكر له أن زوجته اشتد شوقها إلى ابنتها التي عنده، وتمنت لقاءها قبل الموت، وألحت عليه في إحضارها، وأحب إسعافها بها، وسأل الملك إخراجها إليه وتعجيل إطلاقه للمبادرة بها. ففعل وأجاز الجارية، وتوثق منها بالكتمان عليه، وأفضل عليها وعلى أبيها وانقلب عنه

وذكر أنه لما دخل عليه قال له لذريق : إذا أنت قدمت علينا فاستفره لنا من الشذانقات. فقال له : أيها الملك، والمسيح لأدخلن عليك شذانقات ما دخل عليك بمثلها

---

(1) أستاذ الأدب الأندلسي المشارك : قسم الأدب، كلية اللغة العربية. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض– عضو هيئة التحرير بمجلة : دراسات أندلسية.

قط ! يعرّض له بما أضمر من السعي في إدخال رجال العرب الأندلس عليه، وهو لا يفطن ؛ فلم يتنهنه يليان إذ وصل سبتة أن تهيأ للمسير نحو موسى بن نصير، فأتاه بإفريقية، فحرضه على فتح الأندلس ووصف له حسنها وفوائدها وفضلها، وهوّن عليه حال رجالها، فعاقده موسى على الانحراف إلى المسلمين وسامه مكاشفة أهل ملّته من أهل الأندلس، ففعل يليان ذلك وحل بالجزيرة الخضراء، فقتل وسبى وغنم وأقام بها أياما يشن الغارات، وشاع الخبر عند المسلمين، فأنسوا بيليان وذلك عقب سنة 90.

وكتب موسى بن نصير إلى الوليد يعلمه بما دعاه إليه يليان ويستأذنه في افتتاح الأندلس، فكتب إليه الوليد أن خضها بالسرايا حتى تختبر [1] شأنها ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال، فراجعه أنه ليس ببحر وإنما هو خليج يتبين للناظر ما وراءه، فكتب إليه : وإن كان، لابد من اختباره بالسرايا ! فبعث موسى عند ذلك رجلا من مواليه من البربر اسمه طريف بن ملوك المعافري يكنى أبا زرعة في أربعمائة رجل فعبر بهم ونزل في الجزيرة المنسوبة إليه؛ ثم أغار على الجزيرة الخضراء ونواحيها فأصاب سبيا لم ير موسى فيما أصابه مثله حسنا، وأصاب مالا جسيما وأمتعة، وذلك في شهر رمضان من سنة 91 [2].

2- الابنة الحكيمة :

كان بنواحي غرب الأندلس ملك يوناني بجزيرة يقال لها «قادس» وكانت له ابنة في غاية الجمال، فتسامع بها ملوك الأندلس، وكانت الأندلس كثيرة الملوك، لكل بلدة أو بلدتين ملك، فخطبوها، وخشي أبوها إن زوجها من واحد أسخط الباقين، فتحير، وأحضر ابنته ؛ فقال لها : يا بنية، إني أصبحت في حيرة من أمرك ممن يخطبك من الملوك، وما أرضيت واحدا إلا أسخطت الباقين، فقالت له : اجعل الأمر إلي تخلص، فقال : وما تقترحين ؟ فقالت : أن يكون ملكا حكيما، فقال : نعم ما اخترته لنفسك.

(1) ت و م : «يختبر».

(2) من كتاب : صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ص 8-7.

فكتب في أجوبة الملوك الخطاب، أنها اختارت من الأزواج الملك الحكيم، فلما وقفوا على الجواب سكت من لم يكن حكيما، وكان في الملوك الخاطبين حكيمان، فكتب كل واحد منهما : أنا الملك الحكيم، فلما وقف على كتابيهما قال لها : يا بنية، بقي الأمر على إشكاله وهذان ملكان حكيمان، أيّهما أرضيت أسخطت الآخر فقالت : سأقترح على كل واحد منهما أمرا يأتي به فأيّهما سبق إلى الفراغ مما التمست كنت زوجته، قال : وما الذي تقترحين عليهما ؟ قالت : إنا ساكنون هذه الجزيرة ومحتاجون إلى أرحي تدور بها وإني مقترحة على أحدهما إدارتها بالماء العذب الجاري إليها من ذلك البر، ومقترحة على الآخر أن يأخذ لي طلمسا نحصن به جزيرة الأندلس من البربرفاستضرف أبوها ذلك، وكتب إلى الملكين بما قالت ابنته، فأجاباه إلى ذلك، وتقاسماه على ما اختارا، وشرع كل واحد منهما في عمل ما أسند إليه من ذلك".

فأمّا صاحب الرحي فإنه عمد إلى أشكال اتخذها من الحجارة نضد بعضها إلى البعض في البحر المالح الذي بين جزيرة الأندلس والبر الكبير في الموضع المعروف بزقاق سبتة، وسدد الفرج التي بين الحجارة بما اقتضت حكمته وأوصل تلك الحجارة من البر إلى الجزيرة وآثاره باقية إلى اليوم في الزقاق الذي بين سبته والجزيرة الخضراء وأكثر أهل الأندلس يزعمون أن هذا أثر قنطرة كان الإسكندر قد عملها ليعبر عليها الناس من سبتة إلى الجزيرة، والله أعلم أيّ القولين أصح غير أن الشائع إلى الآن عند الناس هو الثاني – فلما تم تنضيد الحجارة للملك الحكيم جلب الماء العذب من جبل عال في البر الكبير وسلطه من ساقية محكومة وبنى بجزيرة الأندلس رحى على هذه الساقية".

"وأما صاحب الطلسم فإنه أبطأ عمله بسبب انتظار الرصد الموافق لعمله غير أنه عمل أمره وأحكمه، وابتنى بنيانًا مربّعًا من الحجر الأبيض على ساحل البحر في رمل عالج حفر أساسه إلى أن جعله تحت الأرض بمقدار ارتفاعه فوق الأرض ليثبت، فلما انتهى البناء المربّع إلى حيث اختار صورّ من النحاس الأحمر والحديد المصفّى المخلوطين بأحكم الخلط صورة رجل بربري، وله لحية، وفي رأسه ذؤابة من شعره

جعْد قائمة في رأسه لجعودتها وهو متأبط بصورة كساء قد جمع طرفيه على يده اليسرى بألطف تصوير وأحكمه، في رجله نعل، وهو قائم من رأس البناء على مستهدف [1] بمقدار رجليه فقط، وهو شاهق في الهواء، طوله نيف عن ستين أو سبعين ذراعا، وهو محدود [2] الأعلى، إلى أن انتهى ما سعته قدر ذراع، وقد مدّ يده اليمنى بمفتاح قفل قابضًا [3] عليه مشيرا إلى البحر كأنه يقول لا عبور، وكان من تأثير هذا الطلسم في البحر الذي تجاهه أنه لم ير قط ساكنا ولا كانت تجري فيه قطّ سفينة بربر حتى [4] سقط المفتاح من يده.

وكان الملكان اللذان عملا الرحي والطلسم يتسابقان إلى فراغ العمل، إذ بالسبق يستحق زواج المرأة، وكان صاحب الرحي فرغ أوّلا لكنّه أخفى أمره عن صاحب الطّلسم لئلا يترك عمله فيبطل الطلسم، لتحظى المرأة بالرحى والطلسم فلما علم اليوم الذي يفرغ فيه صاحب الطلسم في آخره أجرى الماء في الجزيرة من أوله وأدار الرحى، واشتهر بذلك، فاتصل الخبر بصاحب الطلسم وهو في أعلى القبة يصقل وجهه، وكان الطلسم مذهبا، فلما تحقق أنه مسبوق ضعفت نفسه فسقط من أعلى البناء ميتًا، وحصل صاحب الرحي على المرأة والرحى والطلسم [5].

(1) ابن خلكان : مستدق.

(2) ك : محدوب

(3) في الأصول : قابض.

(4) في الأصول : إلا.

(5) من النفح....، ج1، 244 - 246.

3- حسان [1] ... والكاهنة [2] :

أباد حسان بن النعمان ملوك البربر والروم [3]، ثم دخل (القيروان) وسأل أهلها عمن بقي من أعظم ملوك إفريقية ليسير إليه فيبيده أو يسلم، فدلوه على امرأة بجبل (أوراس) يقال لها الكاهنة، وجميع من بإفريقية من الروم منها خائفون وجميع البربر لها مطيعون ثم قالوا له : إن قتلتها دان لك المغرب كله ولم يبق لك مضاد ولا معاند، فدخل بجيوشه إليها وبلغ الكاهنة خبره، فرحلت من الجبل في عدد لا يحصى ولا يبلغ بالاستقصاء، وسبقته إلى مدينة (باغاية)، فأخرجت منها الروم وهدمتها وظنت أن حسانا يريد مدينة ليتحصن بها منها فبلغ خبرها حسانا فنزل بواد (مسكيانة)، فرحلت الكاهنة حتى نزلت إلى الوادي المذكور، فكان هو يشرب من أعلى الوادي وهي من أسفله فلما توافت الخيل دنا بعضهما من بعض فأبى حسان أن يقتلها آخر النهار فبات الفريقان ليلتهم على سروجهم، فلما أصبح الصباح التقى الجمعان، فتقاتلوا قتلا لم يسمع بمثله وصبر الفريقان صبرا لم ينته أحد إليه، إلى أن انهزم حسان ومن معه من المسلمين وقتلت الكاهنة العرب قتلا ذريعا، وأسرت ثمانين رجلا من أعيان أصحابه، وسمي ذالك الوادي (وادي العذارى)، واتّبعته الكاهنة حتّى خرج من عمل قابس فكتب حسان إلى أمير المؤمنين (عبد الملك ابن مروان) [4] يخبره بذلك، وأن أمم الغرب

---

(1) هو : حسان بن النعمان بن عدي بن بكر بن مغيث بن عمرو من الأزد، من التابعين، ويلقّب بالشيخ الأمين. انظر ما كتب عنه وعن نسبه وحياته في كتاب (حسان بن النعمان الغساني ودوره في فتح بلاد المغرب).

(2) هي دهيا بنت ماتية بن تيفان، ملكة جبل أوراس. انظر ما كتب عنها في الكتاب السابق الصفحات من 111 - 114.

(3) القصة هذه منقولة بتصرف عن : البيان المغرب...، ج1، ص 35 - 39، وكان صاحب كتاب (حسان بن النعمان الغساني....) قد أشار إليها في الصفحات من 111 - 114.

(4) عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشي (26 / 646 – 86 / 705) انظر : الأعلام، ج4، ص 165، وقد أشار في هامش الصفحة المذكورة لمصادر الترجمة لهذا الخليفة.

ليست لها غاية ولا يقف أحد منها على نهاية. كلما بادت أمة خلفتها أمم، وهي من الجيل والكثرة كسائمة النعم.

وملكت الكاهنة المغرب كله بعد حسان خمس سنين، فلما رأت إبطاء العرب عنها قالت للبربر "إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدن والذهب والفضة ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي!! فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها حتى ييأس منها العرب، فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر، ثم وجهت قومها إلى كل ناحية يقطعون الشجر ويهدمون الحصون، فذكروا أن إفريقية: كانت ظلاً واحدًا من طرابلس إلى طنجة وقرى متصلة ومدائن منتظمة حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات ولا أكثر مدائن وحصونا من إقليم إفريقية والمغرب... فخرّبت من قبل الكاهنة وقومها، عندئذ خرج من النصارى والأفارقة خلق كثير مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة فتفرقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية.

وكانت الكاهنة لما أسرت ثمانين رجلا من أصحاب حسّان أحسنت إليهم، وأرسلت بهم إلى حسان، وحبست عندها (خالد بن يزيد)، وقالت له يوما : ما رأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع !! وأنا أريد أن أرضعك فتكون أخا لولديّ، وكان لها ابنان أحدهما بربري والآخر يوناني، وقالت له أيضا : نحن جماعة البربر لنا رضاع إذا فعلناه نتوارث به، ثم عمدت إلى دقيق الشعير وخلطته بزيت وجعلته على ثدييها، ودعت ولديها، وقالت : كُلا معه على ثدييَّ ففعلا، فقالت قد صرتم إخوة...

وإذا كانت هذه الكاهنة قد فعلت هذا بإفريقية فإن حسّانا لم ينس ما يفعله فقد توافدت عليه فرسان العرب ورجالها بعد هزيمته مع الكاهنة وذلك من قبل أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، وبعدها دعا رجلا يثق به وبعثه إلى (خالد بن يزيد) بكتاب، فقرأه، ثم كتب في ظهره : إنّ البربر متفرقون لا نظام لهم ولا رأي عندهم !! فاطو المراحل وجدّ في السير، وجعل الكتاب في خبزة وجعلها زادا للرجل ووجهه بها إلى الأمير حسان. ولم يغب عن خالد بن يزيد إلا يسيرا حتى خرجت الكاهنة ناشرة شعورها تضرب صدرها وتقول : يا ويلكم يا معشر البربر!! ذهب ملككم فيما يأكله الناس،

فافترقوا يمينا وشمالا يطلبون الرجل، فستره اللّه تعالى حتّى وصل إلى حسان، فكسر الخبزة وقرأ الكتاب فوجده قد فسد من النار، فقال له حسان : ارجع إليه فقال الرجل : والكاهنة !! فرحل حسان بجنده إليها، فلما كان في الليل قالت لابنيها : إني مقتولة وأعلمتهم أنها رأت رأسها مقطوعا موضوعا بين يدي ملك العرب الذي بعث حسّانا، فقال لها خالد : فارحلي بنا، وخلّي له البلاد، فامتنعت ورأته عارا لقومها، فقال لها خالد ومن معه من أولادها : فما نحن صانعون بعدك ؟

فقالت : أما أنت يا خالد فستدرك ملكا عظيما عند ملككم، وأما أولادي فسيدركون سلطانا مع هذا الرجل الذي يقتلني، ثم قالت اركبوا واستأمنوا إليه، فركب خالد وأولادها في الليل وتجّهوا إلى حسّان فأخبره خالد بخبرها وأنها علمت بمقتلها، وقد وجهت إليك بأولادها فوكّل بهم من يحفظهم. وبعد ذلك قدّم حسان خالدا على أعنة الخيل، وخرجت الكاهنة ناشرة شعرها فقالت : انظروا ما دهمكم، فإني مقتولة ثم التحم الفريقان : الفريق الإسلامي بقيادة حسّان وخالد وفريق الكفرة بقيادة الكاهنة واشتدّ النزال فانهزمت الكاهنة بإذن الله وتبعها حسان حتى قتلها ودخل تحت لوائه جماعة من البربر وقد استأمنوه فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من قبائلهم اثني عشر ألفا يجاهدون مع العرب، فأجابوه وأسلموا على يديه فعقد لولدي الكاهنة لكل واحد منهما ستة آلاف فارس وأخرجهم مع العرب يجولون في بلاد المغرب، يقاتلون الروم ومن كفر من البربر، وانصرف حسّان إلى مدينة القيروان واستقامت له بلاد إفريقية، فدوّن الدواوين، وصالح على الخراج ولم ينازعه أحد بعد الكاهنة اللعينة حتى عزله عبد العزيز بن مروان والي مصر دون أمر الخليفة عبد الملك بن مروان [1].

(1) قد يقول القارئ قولا ظاهرا على لسانه، وقد يخفيه، فيقول ما علاقة هذه الحكاية بالتراث الأندلسي؟ وأنا أقول له الأندلس لم تفتح بعد والمغرب كانت منطلقا للفتح الإسلامي الذي امتد إلى بلاد أوروبا ونحن نعرف أن هناك الكثير من البرابرة الذين شاركوا في الفتح الإسلامي خاصة لبلاد الأندلس، بل إن البربر من العناصر المهمة في المجتمع الأندلسي الذي تشكل فيما بعد.

4- الحطّاب...... والنصارى :

كان المنصور بن أبي عامر، جالسا في بعض الليالي، وكانت ليلة شديدة البرد والرّيح والمطر، فدعا بأحد الفرسان، وقال له : "انهض إلى فج طليارش وأقم فيه، فأول خاطر يخطر عليك سقه إلي". قال : فنهض الفارس وبقي في الفج في البرد والريح والمطر واقفا على فرسه، إذ وقف عليه قرب الفجر شيخ هرم على حمار له، ومعه آلة الحطب، فقال له الفارس : "إلى أين تذهب يا شيخ ؟" فقال : "وراء حطب". فقال الفارس في نفسه : "هذا شيخ مسكين نهض إلى الجبل يسوق حطبا. فما عسى أن يريد المنصور منه ؟" قال : فتركته فسار عنّي قليلا، ثم فكرت في قول المنصور، وخفت سطوته، فنهضت إلى الشيخ وقلت له : "ارجع إلى مولانا المنصور". فقال : "وما عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلي ؟ سألتك بالله أن تتركني لطلب معيشتي !" فقال له الفارس : "لا أفعل" ثم قدم به على المنصور، ومثله بين يديه وهو جالس، لم ينم ليلته تلك. فقال المنصور للصقالبة : "فتشوه!" ففتش فلم يوجد عنده شيء، فقال : "فتشوا بردعة حماره !" فوجدوا بداخلها كتابا من نصارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور، يحزمون عنده إلى أصحابهم من النصارى ليقبلوا ويضربوا في إحدى النواحي المعزومة. فلما انبلج الصبح أمر بإخراج أولائك النصارى إلى باب الزاهرة فضربت أعناقهم وضربت رقبة الشيخ معهم". [1].

5- الأميرة الأسيرة :

"بثينة بنت المعتمد بن عباد، وأمها الرميكية، كانت نحوا من أمها في الجمال والنادرة ونظم الشعر، ولما أحيط بأبيها ووقع النهب في قصره كانت من جملة من سبي، ولم يزل المعتمد والرميكية عليها في وله دائم لا يعلمان ما آل إليه أمرها إلى أن كتبت إليهما بالشعر المشهور المتداول بين الناس بالمغرب، وكان أحد تجّار إشبيلية اشتراها على أنها جارية سرّيّة ووهبها لابنه فنظر من شأنها وهُيّئت له، فلمّا أراد

---

(1) من : البيان المغرب.... ج2 ، ص 290 - 291.

الدخول عليها امتنعت، وأظهرت نسبها، وقالت لا أحلّ لك إلا بعقد نكاح إن رضي أبي ذلك، وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها لأبيها وانتظار جوابه، فكان الذي كتبته بخطّها من نظمها ما صورته :

اسمع كلامي واستمع لمقالتي ... فهي السلوك بدت من الأجياد
لا تنكروا أنّي سبيت وأنني ... بنت لملك من بني عبّاد
ملك عظيم قد تولى عصره ... وكذا الزمان يؤول للإفساد
لما أراد اللّه فرقة شملنا ... وأذاقنا طعم الأسى عن زاد
قام النّفاق على أبي في ملكه ... فدنا الفراق ولم يكن بمراد
فخرجت هاربة فحازنيَ امرؤ ... لم يأت في إعجاله [1] بسداد
إذ باعني بيع العبيد فضمني ... من صانني إلا من الأنكاد
وأرادني لنكاح نجل طاهر ... حسن الخلائق من بني الأنجاد
ومضى إليك يسوم رأيك في الرضى ... ولأنت تنظر في طريق رشادي
فعساك يا أبتي تعرّفني به ... إن كان ممّن يُرتجى لوداد
وعسى رميكية الملوك بفضلها ... تدعو لنا باليمن والإسعاد [2]

(1) دوزي : أفعاله.

(2) من : النفح.....، ج4 ، ص 284.

6- مقامة الوادي آشي [1] :

مقامة كتب بها محارب بن محمد الوادي آشي [2] للقائد أبي عبد الله بن ميمون[3]:

أخبر فتح بن ميسور قال : تعرفت بمدينة صور[4] بفتى يعرف بابن منصور، ذي جَدٍّ بعيد الحيف، وقد لا يزيد على السيف، جلال له سبع وسبع [5]، كأنه هلال له خمس وخمس وأربع [6]. ينزل من قطره بالمحل الأسنى، ويحلّ منه محلّ القرط من الغادة الحسنا [7]، يسعى في ميدان الفصاحة فتحمد مساعيه، ويدعو أباسم البلاغة فتجيب دعوة داعيه، فسكنت إلى ساحته لفصاحته، وركنت إلى جماله لإحسانه وإجماله، واستظللت بشمس وصاله، وظلّت أولع ببرّه وإفضاله، وأسرّ بخَلقه وأخلاقه، حتى حكم

---

(1) نقلا من كتاب (رسائل أندلسية) تحقيق الدكتور فوزي سعد عيسى ، الصفحات من 81 - 92.

(2) هو : أبو محمد محارب بن محمد بن محارب من أهل وادي آش، قرب غرناطة، ذكر ابن الأبار في (التكملة ت : 1173) أنه كان حيا إلى سنة 553 هـ، وأورد له في (المقتضب من كتاب تحفة القادم ص 85) أبياتا يمدح فيها القاضي أبا الفضل بن عياض. وهذه الأبيات من مقامة أخرى لمحارب في مدح القاضي عياض وقد ذكر ابن الأبار أنها كتبت سنة 553 هـ ولكنها لم تصل إلينا كاملة.

(3) عبد الله بن ميمون : قائد بحري مرابطي أبلى بلاء حسنا في استرداد جزيرة ميورقة بعد أن حاصرها النصارى واحتلوها سنة 508هـ، واستطاع عبد الله بن ميمون أن يخترق الحصار بسفينته تحت جنح الظلام، وأن يعبر البحر إلى المغرب في محاولة جريئة لطلب النجدة، وبادر علي بن يوسف بن تاشفين بتجهيز أسطول ضخم من خمسمائة سفينة نجح في دخول ميورقة واستردادها (509 هـ). ومنذ ذلك التاريخ دخلت ميورقة أو كبرى الجزائر الشرقية تحت طاعة المرابطين. انظر في ذلك: (ابن خلدون 4 : 165، روض القرطاس : 105، عنان : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي 212 - 213).

(4) صور : مدينة بالشام.

(5) كذا بالأصل.

(6) يشبّهه بالهلال حين يكون ابن أربع عشرة ليلة.

(7) الحسنا : الحسناء، والتخفيف لمراعاة السجع.

الدهر ببعده وفراقه، فنجدت وعرّق [1]، وغرّبت وشرّق، وحللت مدينة سلا [2]، وقلبي قد أقصر عن التصابي وسلا، وسيفي ينشد :

18- /ب "خَلِيلَيَّ عَنْ عَصْرِ الشَّبَابِ سَلا"

وصرت أكلف البرية بحضرة المرية [3]، فنبذت عن غير وردها كل نية، وأخذت على قعودها كل ثنية، وسرت أعمل السير والسّرى، ولاأنوق إلا على الأكوار [4] الكرى، وأكل العيس [5] إلى نهج البرى [6]، وأحث إليها ركابي، وأركب من أجلها طرفا [7] غير كاب، وأطوي نحوها المراحل، وأطوف البيداء والسواحل، إلى أن وردت مدينة سبتة [8]، وقد هجرت طاغوت الصّبا وجبته، وطلّقته ثلاثا البتّة، وحللت الجزيرة[9]، ولم أعبأ بغوير ولا غويره [10]، حسبما يقتضيه سنين السن، ويرتضيه حال

---

(1) نجدت : اتجهت إلى نجد، وعرّق قصد العراق.

(2) سلا : مدينة مغربية تقع على شاطئ المحيط الأطلسي، ويفصلها عن رباط الفتح الوادي الذي يصب في المحيط، ويقال : إنها أول بناء بناه البربر لما دخلوا المغرب. (الروض المعطار 198-197، الإدريسي 72، الاستبصار149).

(3) المرية : مدينة في جنوب شرق الأندلس، بناها الخليفة عبد الرحمان الناصر لدين الله سنة 344 هـ، وكانت أعظم قواعد الأسطول الأندلسي في عصر الخلافة الأموية، وكان لها دور سياسي وحضاري عظيم في عصرا لطوائف (انظر : الروض المعطار ص 183)، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، د / السيد عبد العزيز سالم، ط. بيروت 1969.

(4) الأكوار : جمع كور، وهي الإبل الكثيرة العظيمة، يقال فلان على كور من الإبل، أي على قطيع منها.

(5) العيس : الإبل.

(6) يقال : بريت البعير إذا حسرته وأذهبت لحمه، فأصابه الهزال من السفر والترحال.

(7) الطِّرف (بالكسر) من الخيل : الكريم العتيق.

(8) مدينة بشمال المغرب، مازالت إلى اليوم تحت الاحتلال الإسباني.

(9) أي جزيرة الأندلس

(10) ماء لكلب معروف بناحية السماوة، والمقصود أنّه لم يخش المخاطر.

الرجل المسنّ، فامتطيت منها ثبج العزم، وتخطيت من وساد الكسل إلى فجاج الحزم، وأدخلت على نون الإقامة حروف الجزم [1]، فشحذت نصل حزمي للرحلة، ونبذت لانتحال الاغتراب كل نحلة، وظلت أسير، والقلب بيد الاشتياق أسير، حتى وصلت إلى مدينة وادي آش [2]، وجسمي لا يتبين نحولا في فراش، وفراشي فوق أجنحة الفَراش، فمثلت في حيطانها، وحصلت بين رباها وغيطانها [3]، فرأيت للحسن مقر إيراد وإصدار، وجمال قطر لا يجري على مقدار :

بلد حيثما توجهت منه قابلتك الحسان من كل دار

فأظلّتني أفياء تلك الأنشام، وأضلّتني عن المسير حرجات [4] الأيك بها والبشام[5]، وخلصت إلى دوحة فرصاد [6]، وجلست لإطلال مرشد بالمرصاد، فبينما أنا أنتظر الرفيق، والمنجد على معرفة الطريق، إذا نجم [7] لي راكب، يسري سرى الكواكب، قد اعتقل أكمل لأمه [8]، وصولج في خده لامه[9] واعتمّ بأجمل عمامة، وجعل الحذر وراءه وأمامه، جليل له همة تجلّه، قليل على ظهر المطية ظله [10]، قد تنكب فرسا

(1) كناية عن تصميمه وعزمه على الرّحيل.

(2) مدينة في جنوب الأندلس، قريبة من غرناطة بنحو ستين كيلومترا، وقد نسب إليها محارب صاحب المقامة، وقد سقطت وادي آش سنة 795 هـ (الروض المعطار : 604، نزهة المشتاق : 295).

(3) الغيطان : الأماكن المتسعة من الأرض مع طمأنينة.

(4) الحرجات : الشجر الملتف.

(5) البشام : شجرة طيب الريح يستاك به.

(6) الفرصاد (بالكسر) : التوت الأحمر خاصة.

(7) نجم : ظهر ولاح.

(8) اللأمة : الدرع، وقد خففت الهمزة لمراعاة السجع.

(9) يشبه عذاره بحرف اللام.

(10) من قول عمر بن أبي ربيعة :

قليل على ظهر المطية ظله سوى ما نفى عنه الرداء المحبّر

(ديوانه، ص 64)

عربية، وكنانة [1]غربية، له عِمّة [2] تشيد له بعلوّ الهمّة، ولثام [3] يحذر عن ارتكاب [4] الآثام، وقد ضوى[5] منه أطراف المطارف [6]، حمائل سيف وصفه ذوو المعارف:

وفي الغمد موتور الهوى طال حبسه عن الثأر حتى كاد يفتك بالغمد

وقد تمطى فوق شملّة [7]، حسنة القد مُشمعلّة [8]، مصقولة الأديم، مُصفرّة في لون العرجون [9] القديم، لها أذن مؤللة [10] كبرية القلم أو كأطراف الجلم [11]، وبشرة عسجدية، و حوافر زبرجدية، وتطلُّعُ شيحان [12]، وتقريب تتفل [13] وإرخاء

---

(1) الكنانة : جعبة السهام.

(2) العمّة ما يتعمم به ويكني بها عن البيضة أو السيف أو لبس ثياب الحرب.

(3) كان فرسان المرابطين يضعون لثاما على وجوههم.

(4) في الأصل : ركوب، وقد صححت الكلمة في الهامش.

(5) الضوى : دقة العظم وقلة الجسم خلقة، وقيل : الضوى : الهزال والضعف.

(6) المطارف :جمع الثياب وقيل انها أردية من خز مربعة لها أعلام.

(7) الشملّة (بالتشديد) : الفرس أو الراحلة الخفيفة السريعة المشمرة.

(8) مشمعلة : صفة للفرس أي : خفيفة سريعة نشيطة.

(9)العرجون : العذق عامة، وقيل : هو العذق إذا يبس واعوج، وهو أصفر عريض، وقد شبه الله به الهلال لما عاد رقيقا، فقال الله سبحانه وتعالى:«وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ»"يس:آية39"

(10) مؤللة : حادة منتصبة، ومنه قول طرفة يصف أذني ناقته بالحدة.

مؤللتان يعرف العتق فيهما كسامعتي شاة بحومل مفرد

(شرح المعلقات، ص 44)

(11) الجلم : المقراض الذي يجزّ به الشعر والصوف ونحوهما.

(12) الشيحان : السريع أو الطويل الحسن الطول، وأنشد شمر :

مشيح فوق شيحان يدرّ كأنه كلب (اللسان : شيح)

(13) التقريب : وضع الرجلين موضع اليدين في العدو، والتتفل : ولد الثعلب.

سرحان[1]، ضامرة طِمِرّة، غير ساكنة الجأش ولا مستقرة، تمرح باللجام مرح الأشبال في الآجام، وتسري فتبرح بالبعد أعظم تبريح، فتحسدها خطفة البرق وهبة الريح، تصل شأو الطول، بوعد غير ممطول، وتتلقى الأرض بهمّة حية، وتركض ظهرها بيد جان لامس حية، تجذّ أديم الأرض جذذا [2]، وتخط فتولي الحصى من وطئها نبذا، تسايرها عن يمينه أحسن مسايرة، وتساورها إن همّت بمساوره، سلقة [3] طريفة الخلقة، ذات ذنب مستدير كالحلقة، تؤز الخزان أزا [4]، وتورث الفتيان حرصا وعزّا، عربية الشكل كما وصف ابن مرعزّا [5] :

محبوكة الظهر لم يخنها لصوق بطن منها خميص[6]

---

(1) الإرخاء : ضرب من عدو الذئب يشبه خبب الدواب، والسرحان : الذئب، وهو ينظر إلى قول امرئ القيس في وصفه فرسه :

له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل (ديوانه ص21)

(2) الجذاذ : كسر الشيء الصلب.

(3) السلق : شدة الصوت، أو الماضية في سيرها (اللسان : سلق).

(4) الأز : الحركة الشديدة ويقال : أزت القدر أزا : إذا اشتد غليانها، والخزان : أي تختزن الطريق من سرعتها.

(5) ابن مرعزّا النصراني الإشبيلي : من نصارى إشبيلية، ظهر في دولة المعتمد بن عباد، وكان من مداحه. (المغرب 1 / 264. الخريدة "قسم المغرب 2 / 91" ، نفح الطيب (3 / 521). وهذه الأبيات قالها ابن مرعزّا في وصف كلبة الصيد وقد وردت في المغرب 1 / 264 على هذا النحو :

لم أر ملهى لذي اقتناص ومَقْنَعَ الكاسب الحريص
كمثل خطلاء ذات جيد أغيد تبريه القميص
كالقوس في شكلها، ولكن تنفذ كالسهم للقنيص
إن تخذت أنفها دليلا دل على الكامن العويص
أو أرسلوها وراء برق لم يجد البرق من محيص

وقد وردت الأبيات كذلك في الخريدة 2 / 91 ، والنفح 3 / 521 مع اختلاف في الرواية.

(6) لم يرد هذا البيت في المغرب ولا النفح، وورد في الخريدة بهذه الرواية :

محبوكة الظهر لم تجبه لجوف بطن لها خميص

كالقوس في شكلها ولكن   تنفذُ كالسهم للقنيص
إن تخذتَ أنفها دليلاً   قاد إلى [1] الكامنِ العويص
لو أنها تستثيرُ برقاً[2]   لم يَجِد البرق من مَحيص

صلاحها في أكمة توافيها، وسلاحها مجموعة في فيها، قد قدّ من الأديم قدّها، وحكى الغزال لحظها وقدّها، وقد احتمل فوق شماله أجمل جارح [3]، تميل إليه النفوس والجوارح،قد أتقنت حلاه أيّ إتقان، وكأنما خضبت رجلاه باليرقان، يعقد بمنقاره عقد سبعين، ويشد على الفريسة بثلاثة وتسعين، قد احتمل أحسن درع وأحسن برود، ونضّر في عطفه تيها كما تتضرّ الغادة الرود [4]، وحلّى بدروع أبدع في تصفيفها، وحلّى بالخلاخل وتصحيفها، فإذا خلا له الجو باض وصفّر [5]، وإن أبصر جارحا غيره قلق ونفر، وإن ألحفته غيوم النو [6]، وأبصر عقابا [7] في الجو، شد إلى الرجوع زيمه[8]، وأمطر من الخضوع ديمه، فيخضع خضوع غريب، ويلتفت التفات مريب، ويهدأ هدوّ العلجوم [9]، وينظر كأنما ينظر في النجوم.

قال فتح : فدنوت من مطيته، لأعلم كنه طيته، وسلّمت وسلّم، وتأوّه وتألّم، وقال :

---

(1) في المغرب والنفح : دل على، ولم يرد البيت في الخريدة.

(2) كذا رواية البيت في النفح، وفي المغرب" أو أرسلوها وراء برق" ولم يرد البيت في الخريدة.

(3) أي أن الفارس كان يحمل معه سقرا للصيد.

(4) الرود : الناعمة اللينة.

(5) ينظر إلى قول طرفة :

يا لك من قبرة بمعمر   خلا لك الجو في بيضي واصفري

(6) النّو : (مخفف النوء) : المطر.

(7) العقاب : النسر.

(8) الزيم : المتفرق، وتزيمت الإبل والدواب : تفرقت، والمعنى مجاز.

(9) العلجوم : الظلمة الشديدة، أي أنه يهدأ كهدوء الليل، ومن معاني العلجوم كذلك : الماء الغمر الكثير، والضفدع، والبط ذكره وأنثاه. (اللّسان : علجم).

الحمد لله الذي علّم الإنسان ما لم يكن يعلم [1]، ورشق يمنة وشمالا، واستنشق صبا وشمالا [2]، فشغلت عن استرشاده ، لعذوبة إنشاده (من البسيط).

ظلّت تُريد سبيلَ الغدرِ تَسلكُه   فتّانةً زانَها الدلالُ والخفرُ
قالت : أترحلُ مُختارا ؟ فقلتُ لها :   إن المُقام على ذلٍ هو السّفرُ

وظلت أماشيه لرقة حواشيه، وألازمه ملازمة الظل للأشباح، وأمازجه ممازجة النفوس للأرواح، فما سألته عن حديث إلا ذكره بنصه، ولا عن أمر إلا جاء به من فصه.

وسرنا إلى خندق أوس [3]، ودسنا نواحيه أيّ دوس، ورمينا غرض الرحلة عن كل قوس، وتصدينا بتلك الأحواز [4]، وحكينا نخوة ولاة الأهواز [5]، ووصلنا عبلة الريح، وقد أبدى عن الرغوة الصريح [6]، فبتنا بها أحسن مبيت، نتجاذب الحديث عن الزوراء ومليت [7]، ونرسل بيننا عوارف الأدب، وننسل البلاغة من كل حدب.

ولما قرب حين السفر وحان، وتعرض في الأفق ذنب السرحان [8]، بعث الله النسيم

---

(1) يقتبس من قوله تعالى (عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) العلق – الآية 5).

(2) شمالا : رياح الشمال وقيل إنها تهب من قبل الشام عن يسار القبلة. والصبا ريح معروفة تقابل الدبور.

(3) الخندق : الوادي وخندق أوس : موضع.

(4) الأحواز : النواحي والحوز من الأرض أن يتخذها رجل ويبيّن حدودها فيستحقها، فلا يكون لأحد فيها حق معه.

(5) الأهواز : سبع كور بين البصرة وفارس، لكل واحدة منها اسم وليس للأهواز واحد من لفظه، ولا يفرد واحد منها بهوز (اللسان : هوز)

(6) في المثل : "تحت الرغوة اللبن الصريح" أو "الصريح تحت الرّغوة" أي أن الأمر مغطى عليك وسيبدو لك. (مجمع الأمثال للميداني : 1 / 428).

(7) الزوراء : مدينة ببغداد في الجانب الشرقي، ودجلة بغداد تسمى الزوراء، والزوراء : دار بالحيرة بناها النعمان بن المنذر. ومليت : موضع.

(8) كناية عن طلوع الفجر.

عليلا، وهو يجر ذيله بليلا [1]، والظلام موليا كليلا، والبرق يصدع [2] جلباب الظلام، والرياح تقتاد أزمة الغمام، وسلّ سيف البرق من غمده، وسبح الرعد "وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ" [3]، فأهملت السماء دموعها، وأروت الأرض : معاهدها وربوعها، وعم المطر بالبرى، وسال واديه فطمّ على القرى، وأصبح وكلّ في لجة يسبح، وركبنا خائضين في أوحال، حامدين للّه على كل حال، فانقشع الغمام وانجاب، والشمس تنظر من وراء حجب، وانتثر عن الشمس السحاب في خِبَبا، (وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا)[4]، وخمدت نار القرى وخبت، وأنزل الماء على الأرض فاهتزت وربت [5]، وغدونا نركض مطي الارتياح، ونقبض هدايا الروض من أكف الرياح، ونتحاش عن السفر، ونقطع بملح الحديث المهامه والقفر، حتى وصلنا الكثيب المهيل [6]، وأجزنا ساحة التكبير والتهليل، والليل قد مدت أنساعه [7]، والوقت قد ضاق اتساعه، وأوان النهار قد أزف، وماؤه قد نزف، وعباء العشي قد قذف، وحرف الأضواء قد حذف، وألوية الوادي قد نشرت، وسطور الظلماء قد بشرت، وأمم الحناديس قد حشرت، ومدت من اللّيل مسوحه [8]، وأحيا ميت الظلام مسيحه[9]، والسّنة [10] تلازم الجفون، ملازمة

---

(1) البليل : ريح باردة مع ندى.

(2) يصدع : يشق ويمزق.

(3) الإسراء 17، آية 44، (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ).

(4) الزمر، آية 69.

(5) مقتبس من قوله تعالى : «وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ» الحج، آية 5. وقوله تعالى : «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ» فصلت، آية 39.

(6) الكثيب المهيل : الرمل الذي لا يثبت مكانه، فينهال ويسقط.

(7) الأنساع، الحبال، والسير الذي يضفّر وتشد به الرحال.

(8) مسوحه : ذوائبه، والمعنى مجاز.

(9) يقتبس هذه الصورة الجميلة من معجزة المسيح عليه السلام في أحياء الموتى ويشخص الظلام تشخيصا جميلا.

(10) السنة : النعاس، ومنه قوله تعالى : (لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ).

النصول للجفون [1]، فملنا إلى خيمة من الخيام، ووصلناها والناس نيام، فطفنا بأسبابها [2]، وانتهينا إلى بابها وقرعنا قرعا حثيثا، وهتك المصباح لنا سترا رثيثا [3]، وناديناا: بأن هلمّ إلى الباب، فلبّى صاحب الخيمة واستجاب، وخرج ينساب انسياب الفرات، وقال : مرحبا بالسُّراة السَّراة [4]، وبالوجوه الوجوه [5]، أنزلوا في رحب وفي سعة، وبالجَزَع لا تحفلوا فأنتم في أمن وفي دعة، فدخلنا في خيمة ذات منير ومنار، ومصباح نور وقبس نار، وبتنا تحت جود وندى، وبات على النار المحلق والندى[6]، ولما اطمأنّ مجلسنا وطاب، وبلغ بسر [7] الأنس إلى حد الإرطاب، ونلنا من لذة الوصول، كل أمنية وسول [8]، ظلت أسائل عن الحضرة ونعيمها، وأنقب عن سيدها وزعيمها، ومشيد مبانيها، وحامي ذمارها ومغانيها، وساحب ذيل برها، وصاحب بحرها وبرها، ذي الرأس السديد، والبأس الشديد، والحكم المأمون، والنجاح المضمون، القائد الأجل أبي عبد الله بن ميمون [9]، سيف هذه الملة، وحتف الطائفة المضلة، فقال : ذلك رجل ماجد، له على الكفرة قلب واجد، من الذين يشكون المشكاة، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة [10]، ويبادرون من الفضل إلى السبيل الأحمد الأشكر، (وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

---

(1) الجفون الأولى جفون العين، والثانية : غمد السيف.

(2) أسباب الخيام : حبالها أو أوتادها.

(3) رثيث : ضعيف.

(4) السراة : الأشراف، ذوو الترف والمروءة والسخاء.

(5) الوجه : المحيا، ووجوه القوم : سادتهم وأشرافهم، وهو المراد.

(6) مقتبس من قول الأعشى في مدح المحلق بن خنثم بن شداد بن ربيعة :

تُشَبُّ لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الندى والمحلّق

(ديوانه : 223)

(7) البسر : التمرقبل أن يرطب لغضاضته، (واحدته : بسرة).

(8) سول : (مخففة الهمزة لمراعاة السّجع) : مطلب.

(9) سبق التعريف به.

(10) مقتبس من قوله تعالى : (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)، (المائدة، آية 55.)

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)[1]، ومن الذين صبروا وجاهدوا[2]، ومن الموفين بعهدهم إذا عاهدوا [3]، لا يصرف قدما إلا في سبيل صلاح، وإصلاح سلاح، أوهمّ من أمر العدو يهمّه، أو رمّ في ذات الله يرمّه، حزم من الصوارم أصرم [4]، وكف من الغمام أكرم :

إن شامَ [5]، طرفك كفّه أو سيفُه　　وَعَرتْك منه أبؤسٌ أو أنعُمُ

أبصرتَ آجالا تَحلُّ وتنتهي　　ورأيتَ أرزاقا تُعَد وتُقسَمُ

إن حابى فكرم للمال مبير، أو احتبى فيَلَملَمُ أو ثبير [6]، وسلني (ولا يُنبئك مثلُ خبير) [7].

قلت : قد وصفت بعض حليته وأدواته، فصف لي بعض غزواته ! قال : هنّ سلوك لا يطاق لها نثر، وسلني عن أيّهن فهنّ كثر ! قلت : القريبة العهد، المرعبة لأطفال[8] المشركين في المهد، قال :

أنبئك بغزوة رُمّانة، وناهيك من مكان لشرك ومكانة. لمّا بلغ من العزيمة [9] أقصاها، وجمع جيوش القطائع وأحصاها، ونسي طيب لذة الوسن وأنساها، (وقَالَ اركبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللّهِ مُجْرَاهَا ومُرْسَاهَا) [10]، وسنّى الله له من أمره ما يُسّر ويَسُرّ، وركب على

(1) اقتباس من قوله تعالى : (يَأمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)، (التوبة، آية 71).

(2) اقتباس من قوله تعالى:(ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيم)، (النحل، آية110)

(3) مقتبس من قوله تعالى : (وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا)، (البقرة، آية 177).

(4) أصرم : أقطع، والصارم السيف القاطع.

(5) شام : تطلع ونظر، وشام السحاب والبرق : نظر إليه : أين يقصد ؟، أين يمطر ؟

(6) ثبيرة : جبل بمكّة.

(7) سورة فاطر، الآية 14.

(8) في الأصل : لأهل، وصوبت في الهامش.

(9) في الأصل : الغريمة.

(10) سورة هود، آية 41.

ذات ألواح ودسر [1]، وسار يلج من البحر في كل لجة، ويحج منها إلى كل محجة[2]، لتكون له بذلك عند الله حجة، وظل يريد وجه الله بأنجد أصحاب، وألوية نصر خافقة في السحاب، قد التحفتهم الرياح والبحورُ، ولا يحَار لمسلم فيحور[3]، والنفوس على نفاستها مهور الحُور [4]، فوصل رمانة بالفلك، ويد النصر تقضي على الشرك بالتدمير والهلك، ولسان الحق يتلو (تَبَارَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ).[5].

وحين وصلهم بالأسطول، وعمر من ناديهم العرض والطول، علا نحيبهم وصياحهم[6]، ونزل بساحتهم فساء صباحهم، فأوقفهم الله الموقف الصعب، (وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ) [7]، وأذاقهم في برد الغدو حر الهواجر، وبلغت القلوب منهم الحناجر[8]، وتشاجرت السيوف والخناجر، ولا تحاكم إلا لأطراف الرماح الشواجر،[9] فأباح حَرَمَها واستباح حُرَمَهَا [10]، وأكمل من غزوها فرائضها ونوافلها، وردّ ديار الشرك عاليها سافلها، وانصرف على خيول السعادة، وأضمر بحول الله غزوة معادة.

---

(1) مقتبس من قوله تعالى : (وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ)، (القمر، آية 13). والدسر : خيط من ليف تشد به ألواح السفينة، وقيل هو : مسمارها، ويقال دسرت السفينة الماء بصدرها : عاندته.

(2) المحجة : الطريق.

(3) يحور : يرجع.

(4) الحور : نساء الجنة.

(5) سورة الملك، آية 1، والآية : (تَبَارَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

(6) أي نحيب الكفار وصياحهم.

(7) سورة الأحزاب، آية 26، والآية بتمامها : (وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا).

(8) مقتبس من قوله تعالى : (وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ)، الأحزاب : آية 10.

(9) الرماح الشواجر : المتداخلة المختلفة.

(10) الحَرَم (بالفتح) : كل ما حرم فلم يمس، والحُرَم (بالضم) : النساء، يقال حرم الرجال أي عياله ونساؤه وما يحمي، وهي المحارم.

ولما أنصرف مسرورا بحسن يقينه، ووصل محبورا إلى خَيسه وعرينه [1]، ما بدّل ثوبا لبسه ولا فرّق خوَلَه [2] وحرَسه، حتى تلا قرينا : (واعْلَمُوا أنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ) [3]، فنهض وهو الحفيظ الأمين، نحو أمير المسلمين [4]، فلقاه بشرا ورحبا، وصدرا ملئ حبا، وفاكهة من التحفيّ وأبّا [5]، وأراه وجه أمله غلاما، ولقاه تحية وسلاما [6]، وشيّعه عند انفصاله أميالا، وجعل سمة التنويه في نجاده نيالا [7]، ومع ما ينيله أميرالمسلمين - أيده الله - من الجاه والبر، والإكرام المبرّ، لا يزال يوالي من التواضع ما به اللّه قد نفعه، ومَن تواضعَ للّه رفعه.

قال فتح : فلما سمعت تلك الألفاظ الإياديّة [8]، والأغراض الزيادية [9] تأملته، وللتأنيس أمّلته، ورجوت أن يكون صاحبي بصور، سعد بن منصور، فحذَر القناع [10] عن صبح ملثم [11]، ونطق غير لَكنٍ ولا متعثم، فشَممت ريّاه، وشمته فإذا هو إياه، وقلت : سعد ؟ قال : سعد، جمعتنا الليالي على غير وعد، "وَالأَمْرُ لِلَّهِ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ

---

(1) الخيس والعرين : موضع الأسد.

(2) الخول : العبيد والخدم.

(3) سورة الأنفال، آية 41 والآية (وَاعْلَمُوا أنما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير).

(4) أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين.

(5) من قوله تعالى : (وَفَاكِهَةً وَأَبًّا) سورة عبس، آية 31، والأب، كل ما أخرجت الأرض من النبات.

(6) من قوله تعالى : (وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا)، سورة الفرقان، آية 75.

(7) النجاد : حمائل سيف، ويكنّى بطول النجاد عن طول القامة.

(8) الألفاظ الإيادية : نسبة إلى إياد بن نزار بن معد، وإياد : حيّ من معد باليمن، ومنهم أبو دؤاد الإيادي.

(9) نسبة إلى زياد بن أبيه (؟).

(10) حذ القناع : رفعه وأسقطه.

(11) إشارة إلى اللثام الذي كان يضعه المرابطون على وجوههم.

بَعْدُ" (1) غبت وشبت وصرت أبا البنين.

قال : (أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا، وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ) (2)، فعانقته معانقة الأديب لأحبابه، وكلفت به كلف عمر بربابه (3)، فصحبت ذلك الذُّكاء (4)، إلى طلوع ذُكاء، واستوى على ظهر المطية، ولا أدرى لأي طية، وأتبعته ميلا، فما رأيت له زاملة ولا زميلا (5)، والله يصنع لنا وله صنعا جميلا. كملت بحمد الله وحسن عونه.

7- عائشة في السجن

كانت عائشة "الحرة" ملكة غرناطة في ظل ملك يحتضر، ومجد يشيع بضوئه الأخير ليخبو ويغيض. وقد رُزقت من زوجها السلطان أبي الحسن بولدين هما أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف. وكانت روح العزم والتفاؤل، التي سرت في بداية هذا العهد إلى غرناطة تذكي بقية الأمل في إنقاذ هذا الملك التالد. وكانت عائشة ترى من الطبيعي أن يؤول الملك إلى ولدها، ولكن حدث بعد ذلك ما يهدد هذا الأمل المشروع. ذلك أن السلطان أبا الحسن ركن في أواخر أيامه إلى حياة الدعة، واسترسل في أهوائه وملاذه، واقترن للمرة الثانية بفتاة نصرانية رائعة الحسن، تعرفها الرواية

---

(1) مقتبس من قوله تعالى : (لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ) (سورة الروم، آية 4).

(2) سورة الشعراء، آية 18.

(3) هو عمر بن أبي ربيعة المخزومي، وكنيته أبو الخطاب، ولد بمكة سنة 23 هـ وتوفي سنة 93 هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك وهو من شعراء الغزل المشهورين، وقد تغزل في غير امرأة منهن الرباب التي جرى ذكرها في شعره كثيرا كقوله : (ديوانه ص 37).

لا تخون الرباب ما دمت حيا ... يا ابن عمي فقد غدرت وخُنتا

وقوله : (ديوانه ص 13) :

حيِّ الربابَ وتربها ... أسماء قبل ذهابها

وانظر ديوانه (ص 20 ، 21 ، 30 ، 50 ،57).

(4) الذكاء (بالفتح) سرعة الفطنة، وذكاء (بالضم) اسم الشمس.

(5) الزامل : من الدواب النشيط في سيره.

الإسلامية باسم "ثريا" الرومية. وتقول الرّواية الإسبانية إن ثريا هذه، واسمها النصراني إيزابيلا وتعرفها الرواية أيضا باسم "زريدة"، كانت ابنة عظيم من عظماء إسبانيا وهو القائد "سانشوا خمنيس دي سوليس" وأنها أُخذت أسيرة في بعض المعارك، وهي صبية فتية، وألحقت وصيفة بقصر الحمراء فاعتنقت الإسلام، وتسمت باسم ثريا أو كوكب الصباح، فهام بها السلطان أبو الحسن، ولم يلبث أن تزوجها، واصطفاها على زوجه الأميرة عائشة، التي عرفت عندئذ "بالحرة" تمييزا لها عن الجارية الرومية، أو إشادة بطهرها ورفيع خلالها [1]، أما السلطان فقد كان يقيم مع زوجه الفتية الحسناء في جناح الحمراء الكبير أو قصر قمارش، بينما كانت تقيم الحرّة و أولادها في جناح بهو السباع[2].

وكان السلطان أبو الحسن قد شاخ يومئذ وأثقلته المنون وغدا أداة سهلة في يد زوجه الفتية الحسناء. وكانت ثريا فضلا عن حسنها الرائع فتاة كثيرة الدهاء والأطماع، وكان وجود هذه الأميرة الأجنبية في قصر غرناطة، واستئثارها بالسلطان والنفوذ في هذه الظروف العصيبة، التي تجتازها المملكة الإسلامية، عنصرا جديدا في إذكاء عوامل الخصومة والتنافس الخطرة. وكانت ثريا في الواقع تتطلع إلى أبعد من السيطرة على الملك الشيخ. ذلك أنها أنجبت من الأمير أبي الحسن كخصيمتها عائشة ولدين، هما سعد ونصر، وكانت ترجو أن يكون الملك لأحدهما. وقد بذلت كل ما استطاعت من

---

(1) راجع : Irving : Conquest Granada حيث يورد أقوال الرواية الإسبانية عن شخصية ثريا (الفصل التاسع). ويقول كوندى : إنّ ثريا كانت ابنة حاكم مرتش نصراني (Conde ; ibid, V III. p. 242). ولكن الرواية العربية تكتفي بالقول بأن ثريا كانت جارية رومية (المقرى في نفح الطيب ج2، ص 608، وأخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر طبعة ميلر ص 6)، ويتفق برسكوت مع الرواية العربية فيقول : إن ثريا كانت جارية يونانية، أي رومية. راجع History of ferdinand and Isabella, p. 213.

(2) كتب هرناندو دي بايزا Hernando de Baeza هذه الرواية المعاصرة بعنوان Las Cosas de Granada "شؤون غرناطة"، ونشرها المستشرق ميلر مع كتاب أخبار العصر (ص 65).

صنوف الدس والإغراء لإبعاد خصيمتها الأميرة عائشة عن كل نفوذ وحظوة، وحرمان ولديها محمد ويوسف من كل حق في الملك، وكان أكبرهما أبو عبد الله محمد ولي العهد المرشح للعرش، وكان أشراف غرناطة يؤثرون ترشيح سليل بيت الملك، على عقب الجارية النصرانية. ولكن ثريا لم تيأس ولم تفتر همتها، فما زالت بأبي الحسن حتى نزل عند تحريضها ورغبتها، وأقصى عائشة وولديها عن كل عطف ورعاية، ثم ضاعفت ثريا سعيها ودسها حتى أمر السلطان باعتقالها، فزجت عائشة مع ولديها إلى برج قمارش، أمنع أبراج الحمراء، وشدّد في الحجر عليهم، وعوملوا بمنتهى الشدّة والقسوة.

أثار هذا التصرّف غضب كثير من الكبراء الذين يؤثرون الأميرة الشرعية وولديها بعطفهم وتأييدهم، وكان نذير الاضطراب والخلاف في المجتمع الغرناطي. وانقسم الزعماء والقادة إلى فريقين خصيمين، فريق يؤيد الأميرة الشرعية وولديها، وفريق يؤيد السلطان وحظيته. واستأثر الفريق الأخير بالنفوذ مدى حين، واضطرمت الأهواء والشهوات والأحقاد، واشتد السخط على أبي الحسن وحظيته التي أصبحت سيدة غرناطة الحقيقية، واستأثرت بكل سلطة ونفوذ. وذهبت ثريا في طغيانها إلى أبعد حدّ فحرضت الملك الشيخ على إزهاق روح ولده أبي عبد الله عثرة آمالها.

وكانت الأميرة عائشة امرأة وافرة العزم والشجاعة فلم تستسلم إلى قدرها الجائر، بل عمدت إلى الاتصال بعصبتها وأنصارها وفي مقدّمتهم بني سرّاج أقوى أسر غرناطة، وأخذت تدبّر معهم وسائل الفرار والمقاومة، ولم يغفر السلطان أبو الحسن لبني سراج هذا الموقف قطّ، ويقال أنه عمد فيما بعد إلى تدبير إهلاكهم في إحدى أبهاء الحمراء، ولما وقفت الأميرة عائشة من أصدقائها على نية أبي الحسن قررت أن تبادر بالعمل، وأن تغادر قصر الحمراء مع ولديها بأية وسيلة. وفي ليلة من ليالي جمادى الثانية سنة 887 هـ (1482 م) استطاعت الأميرة أن تفر معّ ولديها محمد ويوسف بإعانة أحد الخدم المخلصين، الذي كان ينتظر مع الجياد على مقربة من الحمراء على ضفة النهر (نهر حدره) مما يلي برج قمارش. واستعانت الأميرة بأغطّية الفراش على

الهبوط من نوافذ البرج الشاهق في جوف الليل [1]،وهبطت بعد أن أدلت ولديها، ثم اختفى الجميع تحت الظلام.

وهكذا استطاعت هذه الأميرة الباسلة أن تفر من معتقلها في إقدام وجرأة خليقين بأبطال الرجال، واختفى الفارون حينا حتى قويت دعوتهم وانضم إليهم كثير من أهل غرناطة، وكان اسم عائشة ورفيع خلالها، وقصة فرارها الجريء، تثير أيّما عطف وإعجاب. وظهر ولدها الأمير أبو عبد الله محمد في وادي آش حيث مجمع عصبته وأنصاره، وكان السلطان الحسن وقت فرار الأميرة وولديها بعيدا عن غرناطة، يدافع النصارى عن أسوار لوشة، وكانت الحوادث تسير بسرعة مؤذنة باضطرام عاصفة جديدة" [2].

II- الدّراسة :

إذا كان معنى القصة مأخوذا من الفعل (قصّ الأثر)، فإنّ ذلك يعني أنها مادة بحث وتحقيق وليست مادة توهّم وتلفيق [3]، ولهذا فإن من جملة الفنون التي عرفها العرب (فن القصــة)، وهو فن نبع من بيئتهم، وصوّر حياتهم وعقائدهم وبطولاتهم ومغامراتهم[4]، فجاءت في بعض زواياها "مرآة للعصر وللبيئة" [5]، بينما الزوايا الأخرى قد حوت خيالا وشخوصا لنقل ذلك الواقع بعد تزيينه وزخرفته لتنقل القصة من الواقع المحكي إلى عالم آخر يجعلها تقترب من الفنية، مما جعل (لاروس) يقول عن الحكايات القديمة بأنها قصة، فقال : " إن القصة قديما حكاية حقيقية أو مصطنعة منظومة أو منثورة، مصبوبة في قالب قصصي، وهي اليوم عمل أدبي من نسيج الخيال

(1) L. del Marmol : ibid; I. Cap. XII. وقد كتب روايته بعد هذه الحوادث بنحو قرن حسبما قدمنا.

(2) نهاية الأندلس ص ص 184 - 187.

(3) انظر : ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري، ص 68. وانظر أيضا الأدب الأندلسي بين الأصالة والتجديد ص 56.

(4) انظر الكتابين السابقين صفحتي 68، 56 على الترتيب في رقم (140).

(5) من (مرايا متجاورة)، ص 86، انظر أيضا ص 142.

يصور بالنثر أحداثا متخيلة، مصطنعة منمقة بقصد استثارة القارئ وجذب اهتمامه...[1]".

إذ ما قاله (لاروس) هو نفس الكلام الذي ورد في موسوعة (دي فوربير) وهو : "أن القصة حكاية مصطنعة، مكتوبة نثرا، تستهدف استثارة الاهتمام" [2]، وفي قاموس (لتريه) أن القصة رواية واقعية حقيقية، أو مصطنعة، أو هي حكاية ملفقة تستهدف الإثارة [3].

أقول : إذا كان ذلك قد قيل عن (القصة) وأن (الحكاية) قصة، وهذا في رأي الأدباء الغربيين قبل الدارسين العرب، وكذا يلحق بها (المقامة) [4]، فإن تعريفها ما يزال يعيش في إشكالية التحديد، فمعظم النقاد الغربيين يعترفون بالقص العربي، بينما العرب يعزون القصة العربية الحديثة إلى مسببات تعود إلى القص الغربي أو الأوروبي وأنها - أي القصة الأوروبية - كانت سببا في ظهور القصة الفنية في العالم العربي، وأن ما قبل هذه المرحلة - أي مرحلة الاعتماد - لا يعدّ قصة وذلك لخلوها من الخيال وما يصاحبه من أحداث ملفقة [5].

وعلى الرغم من هذه الإشكالية في التعريف، فنحن هنا ندرس (القصة الأندلسية) على أنها قصة عربية قديمة لم يسلط الضوء فيها إلا على قصتي (التوابع والزوابع) و(حي بن يقظان) ناسين أو متناسين (المقامات) و(القصص الإخبارية التأريخية) التي تقترب كثيرا من (القصص الفنية)، وذلك لفنية ما يكتب من التأريخ هناك، فالمؤرخ الأندلسي أديب قبل أن يكون مؤرّخا مما جعل الأدب يدخل في التأريخ، فالصور نجدها في التأريخ الأندلسي متحركة بفعل الأخيلة والصور التي يسبغها

---

(1) من (القصة العربية القديمة)، ص 20.

(2) من السابق ص 19.

(3) انظر الصفحة نفسها من المرجع السابق.

(4) انظر الأدب القصصي عند العرب، ص 66 - 68.

(5) انظر فن القصة، ص 10.

المؤرّخ على كتابه هذا أو ذاك، وقد جاء هذا من واقع اهتمام أهل الأندلس، خاصة المفكرين منهم، بعلم الأدب الذي "به يقترب من مجالس ملوكهم وأعلامهم، ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل" [1]، ولا يعني ذلك أنه قد خرج عن الطريق التي يسير فيها التأريخ من نقل للحقائق ومتابعتها كما هي، وذلك بميله للأدب وتدعيم تأريخه بأشياء من أدبياته، بل أنه يعني جعل التأريخ أشبه بقطعة أدبية رائعة تسعى في نقل الحقائق ومن ثم تصويرها أو توشيتها بصور واقعية، فإذا التأريخ قطعة أدبية، وهذا ما نجده في معظم كتب التأريخ الأندلسي، ولنا في (المقتبس) لابن حيان، وفي (البيان المغرب) للمراكشي، وفي (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) لعبد الواحد المراكشي.... خير دليل على ذلك.

إن قصصنا المذكورة آنفا قد جمعت بين الأنواع الآتية من أنواع القصص :

* قصص إخبارية تأريخية.
* قصة شعرية.
* قصة لغوية (المقامات).
* قصة فلسفية (حي بن يقظان)[*].

وهي قصص تختلف في مصادرها بين (التأريخ) كرمز للبلد وللناس، فهو يحكي حياتهم وكل ما يتعلّق بهم، فكأننا أمام شخص يحكي بطريقة عفوية ما قد كان، فيجعلنا نعيش ذلك الذي قد كان، بل ونتأثر به وله، وبين (الأشخاص) كمؤلفين سواء أكان هذا المؤلف ناثرا أم شاعرا... على أن المعطيات بين هذه الشخصية أو تلك تختلف في كميتها وفنيتها تبعا للمقدرة أو الموهبة التي يمتلكها أو هي تمتلكه.

إننا في هذه القصص أمام التأريخ وقصصه، والشخص المبدع وما كتبه، والتأريخ من عطاء الإنسان، ولكنه يجمع بين الإنسان والواقع المعاش، بينما الإنسان المبدع قد يتحدث عن ذاته أو عن الواقع حوله، إلا أن مرور الأيام تجمع بين هذا الإنسان والتأريخ فندرسهما كجزء هام من تراث هذه الأمة. إن في هذا الكلام معادلة نصل من

(1) من (النفح)، ج 1، ص 222.

[*] لم يورد الباحث النصّ لطوله وشهرته وسهولة الحصول عليه في طبعاته العديدة. (هيئة التحرير).

خلالها إلى الربط بين التاريخ والإنسان والأرض، فإذا نحن مع قصص قد أخذت من (التأريخ) الواقعية، ومن (القصيد) البناء والتماسك، ومن (الرواية) الحدث والشخوص، ومن (المسرح) الحوار والدقة في اللفظ، ومن (المقال) منطقية السرد ودقته..... [1]، وبذا نجدها قد أخذت الشيء الجميل من الفنون الأدبية الأخرى، وهي إن كانت كذلك فهي "مادة بحث وتحقيق ليست مادة توهم وتلفيق...." [2]، كما هي مادة : قصدها القاص من خلال تحكمه في سير الشخوص والحوادث وتطورها [3].

وبعد : فتلك بعض خصائص ما انتقيناه من قصص على أن "أية محاولة لتعريفها أو تحديد خصائصها تضطرنا إلى الاقتراب من ألوان أدبية أخرى إن لم تكن قصصا خالصا فهي به أشبه كالأسطورة والمثل والخرافة ومجرد الحكي....» [4].

إن الناظر لما انتقيناه من نماذج يجد فيها :

– مبدأ الوحدة " وهو أساس جوهري من أسس بناء القصة القصيرة، وهو يشمل وحدة الدافع ووحدة الهدف ووحدة الحدث..." [5].

– مبدأ التركيز أو التكثيف، وعنصر التركيز من مقومات القصة الرئيسية فوجوده يجعل القصة "تؤثر فينا..." [6].

– تفاصيل الإنشاء، والتفاصيل يجب أن تكون تابعا لنفس طبيعة القصة على اعتبار

---

(1) انظر القصة العربية – أجيال وآفاق، ص 6، وانظر ما كتبه الدكتور نبيل راغب عن (الرواية) وأنها تستوعب عدة أنماط من الكتابة مثل (المقالات والخطابات والمذكرات والدراسات التأريخية والوثائق الدينية والمنشورات وأدب الرحلات وكتب الدعاية.... إلى غير ذلك من الأنماط التي تستوعبها الرواية أكثر من القصة). انظر النقد الفني، ص 44، 45.

(2) من : ملامح التجديد في النثر الأندلسي....، ص 68.

(3) انظر : السابق الصفحة نفسها.

(4) من : القصة القصيرة – دراسة ومختارات، ص 91.

(5) من : القصة القصيرة، ص 19.

(6) من السابق، ص 22.

أنها جزء في البناء الكلي..." [1].

وهي وإن كانت كذلك، فإن هذا لا يعني اتفاق هذه النصوص أو ائتلافها مع بعضها البعض، بل إن الاختلاف موجود تبعا لتعدد المصادر وتعدد الكتّاب [2]، فالتاريخ كمصدر يختلف عن الإنسان كمبدع أو كاتب أو مؤلف.

النص : القالب.... والمضمون :

أما (النص) فهو تراثي [3].

وأما (القالب) فهو الناحية الشكلية للقصة [4].

وأما (المضمون) فهو يمثل ما كتب ملخّصا.

والقالب والمضمون مكملان لبعضهما، فعودتنا لمضمون ما اخترناه من قصص يجعلنا نقف على قالبها دون حاجة لتلخيصها في جانبها المضموني.

إن قصصنا قد تنوعت في أسلوبها حسب تنوع مصدرها، ولذا فإننا سنركز الضوء على القصص الإخبارية التأريخية ثم القصة الشعرية فاللغوية وأخيرا الفلسفية.

أولا : القصص الإخبارية التأريخية :

وهي القصص الغالبة على اختياراتنا، وقبل البدء في تناولها ينبغي أن نعرف أن (القصة الإخبارية التأريخية) هي تلك القصة التي تجمع بين تأريخ الإنسان وعلاقته بالحوادث، وبهذا فقد لاتحفل بالعقدة [5] قدر احتفالها بالصّراع الذي يظهر فيها، وهو صراع نفسي أو صراع بين شخصيات القصة، على أن هذا الأمر ليس عاما، فقصصنا

---

(1) من السابق، ص 24.

(2) انظر : الرواية والتراث السردي، ص 113.

(3) انظر : ما كتب عن (النص) في السابق، ص 128.

(4) انظر : ما كتب عن قالب القصة في (القصة العربية القديمة)، ص 60.

(5) مثل هذه القصص قد تعتمد على شكل الهرم المقلوب، فتأتي (العقدة) أولا، بينما هي في القصص المعروفة (بالقصص الفنية) تأتي غالبا في آخر القصة. انظر مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ع1، رجب 1409 هـ / ص 294.

مصدرها التأريخ الأدبي والمؤرخ الأديب، ولذا فهي تقترب من القصص الفنية إن لم تكن كذلك.

إن مصدر هذه القصص وإن كان متنوّعا، فإن البيئة توحّد بينها، تلك البيئة التي انطلقت منها بدافع (الوطنية)، وحب المؤرخ لبلاده [1]، وفي هذا الأمر يتساوى المؤرخ الذي عاش في بلاده (الأندلس) وانتمى إليها، والمؤرخ الذي يعيش في بعد عنها، لكنه تفاعل مع تلك البلاد وأهلها فأصبحت جزءا منه وهو جزء منها، وانعكس ذلك على كتاباته[2]، ولنا في (الدكتور محمد عبد الله عنان) خير مثال على ذلك، الأمر الذي دفعنا للاستشهاد بقصة من القصص التي حواها كتابه (نهاية الأندلس) بالرغم من وجودها في صفحات متفرّقة من (النفح) [3].

القالب أو الشكل (البناء الفني) :

الناظر لهذه القصص يجدها بسيطة في أسلوبها، مثيرة في عرضها، وجاء هذا من وضوح مضمونها، ذلك المضمون الذي يجعل القارئ يناقش ذاته عند قراءة أيّ نص من هذه النصوص، فيجد تلك الذات قد أجابت عن أسئلة واضحة مؤداها : "من ؟ أين؟، كيف؟ لماذا؟ ..... فمن الذي اشترك في الحدث ؟، وماذا حدث فيه؟ ومتى كان ذلك ؟، ولين كان هذا الحدث؟، وما الطريقة التي تم بها ؟...." [4].

إن الذات عندما تطرح مثلا تلك الاستفسارات، فإن القصة في مضمونها تقترب كثيرا من القصة الصحافية أو التقرير الصّحافي الذي نقرأه في صحف هذا العصر، ولكن الطريقة التي اتبعها (مؤرخو الأندلس) ومن سار على نهجهم في عدم الوقوف

(1) انظر : أعلام وأفكار (نظرات في التريخ الثقافي)، ص 114.

(2) انظر النقد الأدبي الحديث، ص 507.

(3) انظر (النفح)، ج 4، الصفحات 511 - 512، 514 - 515.

(4) من مقال بعنوان : "أدب التاريخ – دراسة في المصطلح والإطار النظري". انظر مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ع1، رجب 1409 هـ، صص 294 - 295.

عند الحدث فقط، بل مناقشة هذا الحدث في كتبهم بكلمة لماذا ؟ [1]، نقول إن تلك الطريقة جعلت هذه القصص الإخبارية تبتعد عن طريق التقارير أو القصص الإخبارية الصّحافيّة وتقترب من القصص الفنية في طريقة العرض لهذا المضمون ومحاولة تكثيف المعاني لتخدم الشخصية التي يتم الحديث عنها، وليجد القارئ أنه قد وقف من خلال أسئلته على "جواب شاف لتعليل الحكم السابق" [2]. إن هذه القصص في أسلوبها خاضعة لرأي القارئ الذواق، فإن أرادها قصة فنية فهي كذلك، إذ يجد فيها حبكة وحوارا وصراعا وشخوصا وحدثا .... إلى غير ذلك مما تتطلبه القصة الفنية الحديثة، وإن لم يُردها كذلك فهي مجرد قصة إخبارية حواها كتاب التاريخ كوسيلة اعتمد عليها المؤرخ في كتابة تاريخه، وليضمن من خلالها (عنصر التشويق) الذي يشد القارئ لمتابعة الحدث، فلا يتمكن الملل من نفسه، فيظل متابعا بل مستزيدا بشغف، وإذا كان المؤرخ قد فعل هذا فإن ذلك لا يعني خروجه عن الأطر التي عرفها ككاتب للتاريخ، فقد كان المؤرخ الأندلسي من أحرص الناس على الدقة والتثبت من الحقائق وصياغتها والتأكد الدقيق من صحة كل نقطة، وفحص مختلف الأدلة بغية الوصول إلى نتائج مضبوطة... [3]، وهذا الأمر أدى إلى تضييق (الخبر) والاعتماد على القصة الإخبارية المنقولة من الواقع المعاش والمعبرة عنه بأقصر عبارة وأوضح أسلوب.

إننا بعد قراءة هذه القصص نجدها في أسلوبها بشكل عام حوت الخصائص الآتية :

* أنها قصة وضعت لتقصّ علينا خبرا قد فات وانتهى ومرت الأيام، وبمرورها تحوّل هذا الخبر إلى قصة إخبارية تأريخية.
* قصيرة نسبيا.
* ذات خطة بسيطة.

---

(1) انظر : ما هو التاريخ ؟ ص 97.

(2) من السابق، الصفحة نفسها.

(3) من : تفسير التاريخ، ص 21.

• وحدث محدد حول جانب من جوانب الحياة، لا في واقعها العادي والمنطقي، وإنما طبقا لنظرة مثالية ورمزية [1].

وبهذا فإن ما يميزها أن طبيعتها متقلبة تأتي حسب الذوق الذي يخضع له الدارس، ولما يقرره الكاتب نفسه يقول (بيتس) : " لا يمكن للقصة القصيرة أن تكون أي شيء يقرره الكاتب» [2] فيمكنها أن تكون صورة وصفية أدبية جامدة وخالية من الحبكة، كما يمكنها أن تتكون من حدث ومن قصيدة نثرية مرسومة أكثر منها مكتوبة إلى نموذج من تقرير مباشر، أو هي حكاية جادة [3]، ولهذا "فإن سبب عدم تعريف القصة القصيرة يكمن بصورة واضحة في مطاطيتها غير المحددة ..." [4].

إن تلك النصوص جاءت في كتب التأريخ بعد تفاعل المؤرخ مع الواقع الذي عاشه بل وتعلّق به، فنقل لنا ما شاهده أو عايشه أو سمعه.... مستخدما في ذلك مجموعة أدلّة منها قصصه هذه وما نجده في بعض الكتب التأريخية من حكايات وأخبار وأبيات شعرية.

ولأن المؤرخ قد تفاعل، فإنه حاول أن يركز في أسلوبه عبر قصصه هذه على عدة أمور، منها :

• أن تكون قصصه هذه معبرة عن البيئة التي ينتمي إليها.
• أن تكون شخصيات قصصه من الشخصيات التي يعرفها.
• الاعتماد في بعض الأحيان على الخيال، والخيال هنا ينشطر حول ذاته إلى :

أ- خيال قريب لمن يعايش المؤرخ.

ب- خيال بعيد لمن يأتي بعد عصر المؤرخ، فعند قراءته لهذه القصص يستلهم ذلك

(1) انظر القصة القصيرة - دراسة ومختارات، ص 98.

(2) من : الاعتراف بالقصة القصيرة ، ص 15.

(3) انظر السابق، الصفحة نفسها.

(4) من السابق، الصفحة نفسها.

الواقع ويعايشه بفكره لا بجسمه وروحه، وكأنه في معايشته الفكرية واستلهامه لما قد كان، أمام (فيلم مرئي) يرى عبره الصورة والحركة والشخصيات والموقف... فعند قراءتنا لقصة (الابنة الحكيمة والملوك، أو الحطاب والجندي وما دار بينه وبين الحطاب من محاورة أو المعارك التي دارت بين جند حسان وتلك الكاهنة وما صاحبها من هزيمة وانتصار وقتل وسلب...، أو عندما نقرأ عن لذريق وكيف كان يجمع البنات والصبيان في حوزته وما اتصف به من جبروت وطغيان وكيف أخذ ابنة يوليان...) نجد أنفسنا نعايش ذلك الواقع بكل ما فيه من مرارة وأحزان، فنستلهم ماكانوا عليه في عصرهم، وكيف كان واقعهم ومعايشتهم له، وشتان ما بين معايشتنا ومعايشتهم، والفرق بين المعايشة يحول (الخيال) إلى (عقدة) في أذهاننا ثم تتحول هي بدورها إلى صراع والصراع في هذه القصص يتحول أيضا إلى عقدة... وهكذا تختلط العناصر في هذه القصص مع بعضها البعض...، فإذا كانت العقدة قد تحولت إلى صراع والصراع إلى عقدة كما هو في قصة (عائشة في السجن) فإننا قد نجد (تعقدة) مع الأحداث، فكل حدث عقدة حتى يصل القارئ إلى نهاية هذا الحدث أو ذاك، فأخذ البنت، وخيانة الحطاب، وسجن الملكة وولديها وهربهم من السجن وإخفاء اسم الكاهنة وغيابها ثم ظهورها.... كل هذه عقد، ثم تتحول إلى (حلول) غير متوقّعة في غالبيتها كما هو في قصة (الابنة الحكيمة)، تلك القصة التي تمثلت فيها (العقدة) بصورة واضحة، فبدايتها عقدة ووسطها عقدة، وخاتمتها عقدة، وحلولها تمثلت في حل واحد ظهر في آخر القصة، وقد تأتي (قصة الملكة عائشة) بعدها.

أقول : إن في ذلك فنيّة، وفنية الأسلوب في هذه القصص قد جاء من خلال التركيز على الشخصيات، والتحكم فيها حسب واقع هذه الشخصية في القصة، كما جاءت هذه الفنية من خلال تلك العقد التي تظهر أحيانا وتختفي خلف الصراع المصاحب لها في أحايين أخرى...، أما عن الأحداث فهي ممثلة للواقع المعاش.

إننا إذا نظرنا إلى (الأحداث والشخصيات والصراع) في هذه القصص نجدها متداخلة مع بعضها البعض، أما (الحوار) فقد بلغ ذروته في قصة (الابنة الحكيمة) وفي

(الحطاب والنصارى)، كما كان له حضور في قصة لذريق والابنة المخطوفة)، وكذا في (حسان والكاهنة)، وفي (عائشة في السجن).

إن هذا التداخل بين عناصر القصص موضوع قراءتنا قد تم التعبير عنه بواسطة :

- وحدة المكان.
- واللغة السّهلة البسيطة.
- والمادة التاريخية.

وذلك بالرغم من تباعد الفترة الزمنية بينها، ولعل هذا التباعد هو الذي منع عن هذه القصص صفة (السرد)، والاستغناء عنه بأسلوب تعبيري موحد، وهو ذلك "الذي قسمه الناقد (ريتشاردز) إلى أربعة أقسام وهي :

- المعنى
- والإحساس
- والإيقاع
- والقصد..." (1)

ثانيا : القصة الشعرية :

بثينة بنت المعتمد بن عباد (2) تحكي واقعها لوالدها، وهو واقع كله ألم وحزن وأسى، فالوالد والوالدة يرسفان في قيودهما في (أغمات) قرب مراكش، والبنت أسيرة في إشبيلية شراها أحد التجار فيها، البنت تعرف أين والديها والوالدان لا يعرفان شيئا عن ابنتهما. السؤال يتملك منهما إشفاقا عليها، والبنت حائرة مضطربة لا تعرف أيّ

---

(1) من : فن القصة، ص 114.

(2) انظر ما كتب عنها في : النفح... ، ج4، ص 284، وقد كتب عنها الدكتور عمر فروخ في كتابه (تاريخ الأدبي العربي، ج4، ص721)، محددا ولادتها في سنة 463 هـ، ذاكرا بعض مصادر دراسة (ابن عباد وأولاده) في هامش ص 722.

سبيل يوصلها إليهما.

لقد جاءت هذه القصيدة لتبدد السؤال المتمكن من الوالدين ومن ابنتهما أيضا، إنه سؤال حيرة وقلق وحزن وألم وأسى، سؤال يحمل معنى، وكل كلمة فيها مرارة، وبتبديد هذا السؤال تزول العقدة، فالوالدان عرفا أين ابنتهما، أما مشكلة البنت فما زالت حتى يصلها الجواب منهما.

بدأت القصة بالفعل (اسمع)، وهو فعل يعبر عن انفعالية، لم تكن متوقعة من ابنة تربت بالأدب الرفيع وعاشت في كنف بيت ملك مع والدين معروفين بالملك وبالأدب، إنها انفعالية اكتسبتها البنت الأسيرة من واقعها الجديد، وهو واقع يختلف عن واقعها السابق، فهي الآن خادمة ومملوكة بعد أن كانت أميرة، وهذه الحالة الجديدة لها أحوالها وظروفها التي تختلف عن أحوال الماضي وظروفه الذي كانت تعيشه.إن الظروف الجديدة أدت إلى نشاز في أخلاق الأميرة مما جعلها تبدأ قصتها بفعل الأمر (اسمع كلامي)، ثم تثني على هذا بقولها : (استمع لمقالتي)، والمقالة خاصة والكلام عام فكأنما جمعت بين الحركة المنطوقة والكلام المكتوب، ولأنها تعلم أن والديها -خاصة والدها- مثقلان بهموم عديدة، وهي هموم تشغل الإنسان عن التفكير في أي وضع آخر، ولذا فهي تحاول لفت انتباه والدها بكلام لم يتعوده من قبل من ابنته الأميرة، ووإذا كانت قد فعلت هذا، فإنها لم تنس أن تطمئنه عن وضعها فأتت بكلمة (الأجياد) لتشعر والديها أنها عند أناس هم محل ثقة واطمئنان، وبعد هذا انتقلت لتقص خبرها وما عانته في أسرها ثم كيف حاول من اشتراها أخيرا أن يزوجها ابنه... وأخيرا تطلب من والدها النظر في هذا الأمر:

فعساك يا أبتي تعرفني به إن كان ممن يرتجى لوداد
وعسى رميكية الملوك بفضلها تدعو لنا باليمن والإسعاد

وبهذا، نجد أن القصة بدأت (بأمر) وانتهت، (برجاء) ودعوة وأمل، والأمر والرجاء قد حملا بينهما مفاجأتين هما :

المفاجأة الأولى : معرفة الوالدين بحياة ابنتهما، وأنها تعيش لدى أسرة يعتقد أنها من

الأسر الكريمة.

المفاجأة الثانية : معرفة التاجر أن أسيرته ابنة ملوك.

والمفاجأتان كلتاهما تحملان أسى وحزنا، فالوالدان قد حزنا – مع شدة فرحهما بأخبار ابنتهما وأنها حية – من الواقع الجديد لهذه الابنة المسكينة وما تعرضت له من إهانة وذل وأسر، وهذا الحزن قد قتل الفرح بحياتها ولكن لابد من الاستسلام للواقع المرير.

أما حزن التاجر، فقد كان نتيجة لواقع هذه الأسيرة وكيف أن ابنة الملوك قد أصبحت من الممتلكات التي تباع وتشترى. وهنا نجد أن المفاجأة قد غطّت على حزنه وعدم ذهوله وذهول ابنه.

إنّ هذه القصيدة الشعرية (القصة) تتضح معاناة، فملك ضاع، وعائلة تفككت بين سجن وأسر.

أميرة تباع وتشترى.

وملك يؤخذ رأيه مع أنه لا يملك من حيلة لتخليص نفسه قبل ابنته، فكأن رأيه الآتي فيما بعد مجرد تحصيل حاصل.

مجموعة أمور محيرة تتملك من الابنة ومن التاجر وابنه، ومن الملك وزوجته اعتماد في سجنهما.

لقد جاءت هذه القصة الشعرية (القصيدة) لتنهي العقدة التي أثارت مجموعة أسئلة من قبل الوالد المكبل بالقيود والوالدة التي لا تملك حيلة، والتاجر الذي تفاجأ بالواقع الجديد وكذا ابنه.

الأحداث تتلاحق بانفجار القصيدة (القصة)، ولكن هذا الانفجار أدى إلى بركان محير من الأسئلة وإن كان الظاهر الفرح، لكن الباطن الحزن المتملك من نفس الوالدين والابنة الشاعرة.

فإذا كانت عقدة السؤال عن الابنة قد جاء حلها بعد وصول القصيدة، فإن عقدة البنت قد حلت بعد أن وقف والداها على القصيدة، " فسرّ هو وأمّها بحياتها ورأيا أن ذلك

للنَّفس من أحسن أمنياتها، إذ علما مآل أمرها، وجبر كسرها، إذ ذلك أخف الضررين، وإن كان الكرب قد ستر القلب منه حجاب رين..." [1]، ثم يكتب لها الوالد مشعرا إياها بموافقته على زواجها من ابن التاجر [2] :

بنيتي كُوني به برّةً　　فقد قضى الوقتُ بإسعافِه

وبعد وصول هذا الرد من الوالد " تزوجت من رجل دونها طبقة ومستوى" [3].

إننا بعد قراءة القصيدة وجدنا أنفسنا أمام قصة مأسوية فيها صراع نفسي مرير ومفاجأة في الأحداث والمواقف، فالتاجر بعد أن علم أن أسيرته ابنة ملك لم يكن يتوقع موافقة الوالد على زواجها من ابنه، والبنت لم تكن تتوقع الموافقة أيضا من قبل والدها، فكانت الموافقة بالموافقة طالما أن هذا هو الوضع ولا حيلة لتغييره.

والقصة فيها عقدة بل مجموعة عقد نفسية تفككت بصورة متتالية، وكان آخر الحلول ما جاء من الوالد عبر رسالة حوت البيت الشعري المذكور آنفا. والقصة فيها حلول تعددت بتعدد المشكلات.

أقول : إذا كانت القصة ترجمانا حقيقيا لما يعانيه الكاتب أو المجتمع، فإن قصيدة بثينة لوالدها عبارة عن قصة معاناة استخدم فيها الشعر بدلا من النثر، ولذا نجد أن كل كلمة فيها تحمل معاناة، وأية معاناة ؟!!

إننا بعد استعراض هذه القصة القصيدة نجد أن (المبادئ الكلية) التي تحدث عنها الدكتور مفتاح في كتابه (ديناميكية النص – تنظير وإنجاز) قد تمثلت فيها، إذ نجد[4]:

* المقصدية.
* والتفاعل.

---

(1) من النفح....، ج4، ص 285.

(2) انظر : السابق، الصفحة نفسها.

(3) من الشعر الأندلسي في عصر الطوائف...، ص 376.

(4) انظر : ديناميكية النص...، ص 50 - 52.

* والتملك.
* والتوليد.
* والزمان.
* والانسجام.

ثالثا : القصة اللغوية (المقامة)

القالب..... والمضمون :

أما (المضمون)، فقد دار حول الوصف الذي ينقلب إلى مدح، وهذان غرضان معروفان في الشعر العربي، ولذا نرى أن (الوادي آشي) في مقامته هذه قد زاحم الشعر في أخص ميادينه [1]، الأمر الذي جعل المقامة في مضمونها تسير على نهج القصيدة العربية القديمة، إذ نجد فيها العناصر الآتية :

مقدمة أشبه بالمقدّمة الطللية التي عرفتها القصيدة الجاهلية، إذ حاول الكاتب أن يجعل راويته (فتح بن ميسور) يتعرف على فتى يعرف (بابن منصور) ذلك الذي" يسعى في ميدان الفصاحة فتحمد مساعيه ويدعو باسم البلاغة فتجيب دعوة داعيه...» [2].

والكاتب بهذه المقدمة كنّى عن فقدان اللغة العربية التّميز في بلاده بفعل مضايقة النصارى لتلك البلاد، ولكثرة الاختلاط بالأجناس التي لا تتقن اللغة العربية، فأصبح التميز فيها مثل بقية الأطلال التي يتغنى بها الشاعر الجاهلي ومن قلده.

ثم انتقل بعد هذه المقدمة إلى وصف كل ما مر به، ولم ينس راحلته، وذلك عندما جد في السير للبحث عن (ابن منصور) الذي فقده بعد أن لازمه ليتعلم عنه البلاغة العربية، إذ نجده يقول : "حتى حكم الدهر ببعده وفراقه، فنجدت وعرّق، وغرّبت

(1) انظر : ملامح التجديد في النثر الأندلسي..... ص 187.

(2) انظر : المقامة.

وشرق..." [1].

ثم يقول : "فشحذت نصل حزمي للرحلة" [2]. وبعد وصفه لكل ما مر به قال عن راحلته : لها أذن مؤللة كبرية القلم أو كأطراف الجلم، وبشرة عسجدية، وحوافر زبرجدية...." [3]:

محبوكة الظهر لم يخنها لصوق بطن منها خميص
كالقوس في شكلها ولكن تنفذ كالسهم للقنيص

على أن الكاتب في مقامته هذه قد أطال في وصف راحلته ومن تحمله، ثم من قابل في طريقه، وهو من كان يبحث عنه، قال : "فدنوت من مطيته لأعلم كنه طيته، وسلمت وسلم...." [4]، ولكنه لم يفصح للقارئ عن هذا الشخص إلا في آخر المقامة، إذ نجده يقول : " وقلت سعد ؟ قال : سعد، جمعتنا الليالي على غير وعد، والأمر للّه من قبل ومن بعد، غبت وشبت وصرت أبا البنين...." [5]، وهو بهذه الطريقة يشوّق القارئ لمتابعة مقامته.

والكاتب في هذه المقامة قد جعل من هذا الوصف الذي ضمنه مقامته هذه سبيلا للخلوص إلى الموضوع المراد، فقد انتقل راويته مع (سعد بن منصور) بعد أن لقيه فجأة – ولم يعرفه بعد – إلى الحديث عن القائد (أبي عبد الله بن ميمون)، حيث تحدث حديثا وصفيا عن ذلك القائد وما اتصف به من البطولة والخلق الرفيع.

إن مضمون المقامة قد سار على ما ذكرناه بطريقة منطقية لا نشعر فيها بفجوات، فكأن الإحكام الذي عرفته القصيدة العربية القديمة قد نقله (الوادي آشي) إلى مقامته بصورة متميزة، وبهذا فإن ما يسري على القصيدة القديمة من أحكام نقدية قد تنطبق

(1) انظر : المقامة.

(2) انظر : المقامة.

(3) انظر : المقامة.

(4) انظر : المقامة.

(5) انظر : المقامة.

على هذه المقامة، الأمر الذي جعل (شولتزه) يشبه المقامة بالقصيدة من حيث أنواعها المتعددة [1]، والأنواع هنا غير الناحية الفنية والنهج الذي سار فيه صاحب المقامة موضع درسنا، وكل ما يفرق بين المقامة والقصيدة الشعرية التي لا تحوي قصة وجود الحبكة والراوي (الفتح بن ميسور) والبطل (سعد بن منصور)، و"السرد المنطوي على تسلسل وتطور الحدث أو الحوادث حتى الذروة بنسيج في عقدة متماسكة لا تلبث أن تنحل..." [2].

وبهذا فنحن أمام (قصة) نجدها تلتزم بقواعد فنية قد لا نجدها في معظم مقامات (الهمذاني) [3].

قالب المقامة :

لقد جمعت هذه المقامة في أسلوبها بين الطرافة القصصية والبلاغة الأدبية [4] دون مغالاة أو تصنّع في الصياغة اللفظية، بل حسب ما يقتضيه واقع المقامة، وهو واقع تغلب عليه الصفة الأدبية مما جعلها تبدو أكثر إشراقا من مقامات الهمذاني، وفي ذلك دلالة على أن معظم مفكري الأندلس ومنهم (الوادي آشي) قد بدأ من حيث انتهى المشارقة، ولكنهم مع ذلك –خاصة كتّاب المقامات منهم– قد التزموا بالقواعد الأساسيّة التي سارت عليها المقامة العربية في أسلوبها، وذلك من حيث :

- البطل الوهمي الذي يتميز بموسوعية ثقافية.
- الراوية.
- الحدث.

---

(1) انظر : السوسيولوجيا والأدب، ص 125.

(2) عن : مقامات بديع الزمان الهمذاني، ص 27.

(3) هو : أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى الهمذاني، اشتهر باسم (بديع الزمان الهمذاني)، ولد في (همذان) عام 358 هـ، وتوفي في (هراة) عام 398 هـ. انظر ما كتب عنه في كتاب (مقامات بديع الزمان الهمذاني)، ص 21 وما بعدها.

(4) انظر : السابق ص 27 و ص 33، وانظر أيضا : فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص 57.

- السرد.
- إظهار المقدرة اللغوية.

إلا أن مقامة (الوادي آشي) لم يكن همها إظهار المقدرة اللغوية قدر اهتمامها بالتركيز على الصيغ الأدبية التي تظهر وصف الشخصية أو المكان أو الشيء المراد وصفه، وبذلك فإنّ الوصف كان شبه رابط بين المواضيع المختلفة التي ذكرناها في المضمون.

لقد جاءت هذه (المقامة) "في أسلوب قصصي شائق" [1] يعكس لنا ثقافة البطل والراوية، إذ قسمت البطولة بينهما مما شكل (عقدة) في المقامة وهي عقدة ركزت أساسا على شخصيات المقامة.

إن المشكلات التي ظهرت لنا من خلال غياب (سعد بن منصور)، ثم البحث عنه طويلا، وبعد ذلك التعرف على ما يتصف به القائد ابن ميمون مع جهل الشخصية المتحدثة عن هذه الشخصية من قبل (الفتح بن ميسور).... كل هذه عقد أو مشكلات وقد حلت بالترتيب.

إذا أسلوب المقامة قام على الآتي:

1- الحدث : وقد اعتمد على الوصف الدقيق للشخصيات وللمكان وللراحلة، وهو حدث غير ثابت، بل يتغير ويتطور تبعا للموصوف.

2- العقدة : وقد ظهرت خاصة مع البطل.

3- الشخصيات : وتنقسم إلى :

- شخصيات لها دور في المقامة (فتح بن ميسور وسعد بن منصور).
- شخصيات يدور حولها الحديث وتتمثل في سعد بن منصور عند فقده، والقائد (ابن ميمون) عند وصفه.
- شخصيات لها ظهور محدد، مثل صاحب الخيمة.

---

(1) من : القصة القصيرة – دراسة ومختارات، ص 57.

• شخصيات كونت صراعا داخليا لدى الراوي (ابن ميسور) مثل شخصيتي (ابن منصور) و(ابن ميمون).

4- الحوار : وهو من مستلزمات هذه المقامة لتعدد شخصياتها، ولانتقال الراوي إلى أماكن عديدة [1].

والحوار في هذه المقامة قد يكون نفسيا معتمدا على (الصراع الداخلي)، وقد يكون غير ذلك مثل قوله : "سلّمت وسلّم، وتأوّه وتألّم، وقال..." [2]، وقوله : "وقال : مرحبا بالسّراة السّراة وبالوجوه لوجوه...." [3]، وقوله : "ظلّت أسائل.... فقال، ذلك رجل ماجد..." [4].

إن (الوادي آشي) قد جمع في مقامته هذه عناصر القصة معتمدا في ذلك على لغة سهلة، متبعا الأسلوب المعروف في المقامة، وهو أسلوب يعتمد على السجعة، إلا أنها غير متكلفة في هذه المقامة، كما أن أسلوبه قد كان مشرقا من خلال اعتماده على الأشعار والآيات القرآنية الكريمة التي ظهرت بين ثنايا سطور مقامته هذه [5].

إن (الوادي آشي) بأسلوبه هذا في مقامته هذه قد جعلها تتفق مع المقامات المشرقية في العناصر الأساسية، وتختلف عنها في التناول وعدم تركيزها على ما يتعلق بالمجتمع، وتفردها في التركيز على ذات الفرد، وقد يختلط هذا الفرد مع المكان والزمان، كما تختلف عن المشرقية في عدم التركيز على إظهار المقدرة اللغوية بقدر تركيزها على الشخصيات المراد الحديث عنها.

---

(1) وقد أسماها الدكتور يوسف نور عوض، بفكرة (الغربة) وذلك عند حديثه عن المقامات الهمذانية. انظر : فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص118.

(2) انظر : المقامة.

(3) انظر : المقامة.

(4) انظر : المقامة.

(5) انظر : الأدب القصصي عند العرب ص 344.

رابعا : القصة الفلسفية (حي بن يقظان)

لا تذكر بلاد الأندلس ولا يذكر فكرها إلا ويقترن كل ذلك ببعض الإنتاج الإبداعي ومنها (قصة حي بن يقظان)، ولهذا فقد احتفل بها الكثير من النقاد والدارسين، بل عدوها أفضل قصة كتبت في العصور الوسطى لما حوته من "نضج قصصي في الشرح والتبرير والإقناع..." [1] ولما فيه من اعتناء بالتحليل النفسي للأشخاص وللمواقف [2].

إن قصة (حي بن يقظان) لم تأت بهذه الصورة إلاّ بفعل تميز كاتبها فقد صاغها صياغة فنية أعجبت الفلاسفة وأرضت الأدباء [3].

المضمون..... والقالب :

لسنا في حاجة لتلخيص مضمون القصة، ذلك لأن "تلخيصها لا يغني عن قراءتها..." [4]، ويعود ذلك إلى كونها خلاصة تجربة وحصاد تفكير [5] لهذا الفيلسوف الأندلسي، والوقوف على خلاصة التجارب وحصاد التفكير لا يتأتى عن طريق الملخّصات.

إن معايشة الواقع الذي عاشه (ابن طفيل) في عصره وما كان يدور في ذلك الواقع من مشكلات "شغلت بال الفلاسفة المسلمين قبل (ابن طفيل) وبعده مدة طويلة..." [6]، ومن أهم هذه المشكلات مسألة التوفيق بين الدين والفلسفة [7].

---

(1) من : النقد الأدبي الحديث، ص 497.

(2) انظر السابق، ص 464.وقد عدّ هذه الخاصية من خواص القصة الواقعية في العصر الحديث.

(3) انظر الأدب الأندلسي – موضوعاته وفنونه، ص 703.

(4) من السابق، الصفحة نفسها.

(5) انظر : السابق، ص 687.

(6) من : الأدب القصصي عند العرب، ص 412، وانظر : تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، ص625.

(7) انظر : السابق (الأدب القصصي عند العرب) الصفحة نفسها.

إن ابن (طفيل) قد حاول معالجة هذه القضية من خلال تطرقه "لقصة الحياة بكل تفاصيلها [1] وذلك عبر قصة خيالية" ضمنها كل ما لديه من ثقافات ومعارف مختلفة، فهو فيلسوف ومتصوف وطبيب وفلكي وأديب..." [2]، متعمدا في ذلك على عناصر عربية إسلامية صوفية خالصة" [3]، ولهذا نجد أن هذه القصة في مضمونها «تزخر بالآيات والتعبيرات القرآنية والروح الإسلامية الصوفية.." [4].

إن مضمون القصة يوحي للقارئ أن الكاتب قد تأثر قبل وأثناء كتابة قصته بالآتي :

• الآية القرآنية الكريمة (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ) "المؤمنون، آية12"، وذلك عندما تصور أن طينا تخمر وتخلق منه (حي).

• قصة موسى عليه السّلام وأمه، وما ورد بشأنهما في القرآن الكريم [5].

• ما أوردته بعض كتب التّأريخ العربي من خبر هارون الرشيد مع أخته العباسة ووزيره جعفر البرمكي، "وأنه كان لا يستطيع الصبر عن لقائهما فقال لجعفر : أزوّجها لك ليحلّ لك النظر إليها ولا تقربها، فقال : نعم، فزوّجها منه وكانا يحضران لديه معا، وكان الرشيد يتركهما في بعض الأحيان، فحملت العباسة من جعفر وخافت الرشيد فسيرت ابنها مع حواضن إلى مكة [6].

• تحكّم الخرافات في أذهان بعض العامة، وبعد رجال الدين عن الواقع

---

(1) من : ملامح التجديد في النثر الأندلسي،...، ص 99.

(2) من : السابق الصفحة نفسها.

(3) من : عصر الدّول والإمارات، ص 516.

(4) من : السابق الصفحة نفسها.

(5) قال تعالى : (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى، أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ....) سورة طه، آية 38 - 39.

(6) الحكاية هنا منقولة من : عصر الدّول والإمارات، ص 516، والقارئ للقصة وهذه الحكاية يرى أن الصلة بينهما واضحة بين ميلاد (حَيْ) سرا من أخت الملك وميلاد ابن العباسة سرا عن الرشيد ومحاولة كل منهما تهريب المولود : انظر السابق الصفحة نفسها.

ومناصحة الناس.

ولأن (ابن طفيل) فيلسوف، ويعتقد أن العامة فساد على الأخلاق، فقد انتقل عبر رحلة خيالية لمناقشة هذا الوضع المعاش، جاعلا التفكير ميدان هذه الرحلة، والفلسفة زادها، والمنطق راحلتها، مختارا شرق الكرة الأرضية (الهند) كمكان للخرافات، وليجعلها رمزا لما حل في بلاده، بادئا قصته بخرافة المولد، ومنهيا إياها بالتسليم. وأن هناك خالقا يتصرف في الكون، وأنّ من يحمل عقلا سيهتدي لهذا الأمر مشيرا إلى العلاقة بين الدين والفلسفة.

إن (ابن طفيل) في مضمون قصته قد اتكأ على :

- قصص قرآنية كقصة موسى عليه السلام.
- أحاديث نبوية شريفة كحديث الرسول صلّ اللّه عليه وسلّم : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أوينصرانه أويمجسّانه..." [1]، ثم يقول أبو هريرة : واقرؤوا إن شئتم : (فِطْرَةَ اللّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ....) "الروم، آية 30". [2].
- قصص خرافية (قصة حنين بن إسحاق، وهي منقولة عن اليونانية). [3]
- قصص فلسفية مشابهة (مثل قصة حي بن يقظان لابن سينا – والسهروردي)[4].

إن ابن طفيل قد استطاع عبر هذه القصة الخيالية أن ينجح في إيضاح العلاقة بين العقل والشريعة وأنه لا تقاطع بينهما [5]، وذلك بأسلوب قصصي مشرق معتمدا في ذلك على عناصر قصصية مكنته من الهدف الذي كان يسعى إليه [6]، على أن أهم

(1) صحيح مسلم، ج 4، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة..... ، ص 2047.

(2) من السابق، الصفحة نفسها.

(3) انظر تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، ص 625.

(4) انظر السابق ص 626.

(5) انظر السابق، ص 512.

(6) انظر الأدب القصصي عند العرب، ص 412.

عنصر استخدمه في هذه القصة (الرمز)، فبطل القصة (رمز)، ومكان القصة (رمز)، وحوادثها (رموز)، وشخصيتها (رموز).

إن (ابن طفيل) لم يكن هدفه من التركيز على (الرمز) في قصته الهرب من الواقع المعاش بقدر ما هو محاولة للوصول إلى غاية كان يهدف إليها، فقد نهج في هذه القصة هذا النهج القصصي الرمزي الأسطوري لمحاولة "إيصال المعرفة الإشراقية إلى القارئ" [1]، وهذا لا يحصل "بإحراز العلوم ومطالعة الكتب، وإنما بالسلوك والرياضة والذوق..." [2].

إن ما حوته هذه القصة من عناصر قصصية تمثلت في (الحدث والمكان والأشخاص)[3] لم تأت بقصد من الكاتب وأنه يكتب قصة، وإنما جاءت كجسر مضى عليه ليوصل من خلاله معلوماته إلى قارئ قصته، ويحقق بها هدفا معيّنا سعى إليه[4].

(1) انظر السابق، ص 415.

(2) انظر السابق، الصفحة نفسها.

(3) وقد فصل الدكتور (عمر فروخ) في كتابه (تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون) القول حول شخصيات القصة موضوع درسنا وتعددها. انظر : الكتاب، ص 634.

(4) لسنا في حاجة لتفصيل هذه العناصر التي وردت في (قصة حيّ بن يقظان)، فقد درست القصة وما حوته من عناصر في كتب عديدة أشرنا لبعضها، والبعض الآخر لا نعتقد غيابه عن ذهن القارئ، مثل : النثر الفني في القرن الرابع الهجري للدكتور زكي مبارك، وكتيب (ابن طفيل) للدكتور مصطفى غالب.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم :

أدهم، علي..... : المعتمد بن عباد، صدر ضمن سلسلة أعلام العرب عن المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت. عدد 2، بدون تاريخ.

بالنثيا، آنخل : تأريخ الفكر الأندلسي. ترجمة الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، 1955.

بيريس هنري.... : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف - ملامحه العامّة وموضوعاته الرئيسية وقيمته التوثيقية، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، مصر. الطبعة الأولى، 1408 هـ.

التلمساني، الشيخ أحمد بن محمّد المقريّ : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، حققه الدكتور إحسان عبّاس، دار صادر بيروت1388 هـ.

الحسين الدكتور قصي... : السوسيولوجيا والأدب: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1413هـ.

الحميري أبو عبد الله محمد بن عبد الله.... : صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الرّوض المعطار في خبر الأقطار. عنى بنشرها ليفي بروفنسال، دار الجيل بيروت، ط2، 1408هـ.

خورشيد، فاروق... : في الرواية العربية - عصر التجميع. دار الشروق، بيروت، ط 3 ، 1402هـ.

الدوري، الدكتور عبد العزيز الدوري وآخرون : تفسير التاريخ، صدر ضمن منشورات مكتبة النهضة، بغداد.

راغب الدكتور نبيل : النقد الفني، صدر ضمن سلسلة كتابك عن دار المعارف، 1981.

الزركلي، خير الدين... : الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال... دار العلم للملايين ط9، 1990.

سالم الدكتورة نبيلة ابراهيم... : نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة. النادي الأدبي بالرياض، الطبعة الأولى، 1410هـ.

سعد فاروق.... : مقامات بديع الزمان الهمذاني، قدم لها ونسّقها وشرحها فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1402هـ.

سليمان موسى،... : الأدب القصصي عند العرب – دراسة نقدية. دار الكتاب اللبناني والمكتبة المدرسية، الطبعة الخامسة 1983.

السيوفي الدكتور مصطفى... : الأدب الأندلسي بين الأصالة والتجديد. 1405 هـ.

السيوفي الدكتور مصطفى... : ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري. دار عالم الكتب بيروت، 1405 هـ.

الشكعة، الدكتور مصطفى... : الأدب الأندلسي – موضوعاته وفنونه. دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1983.

الشوباشي، محمد مفيد....... : القصة العربية القديمة. صدر ضمن سلسلة دراسات أدبية عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986.

ضيف الدكتور شوقي...... : عصر الدول والإمارات (الأندلس). دار المعارف، القاهرة.

عصفور، جابر.......... : المرايا المتجاورة – دراسة في نقد طه حسين. صدر ضمن سلسلة دراسات أدبية عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1983.

العربي، كتاب........ : القصة العربية – أجيال وآفاق. صدر ضمن سلسلة كتاب العربي (الكتاب الرابع والعشرون)، الكويت 1989.

العلمي، عمادة البحث..... : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. صدرت عن عمادة البحث العلمي، الرياض، العدد الأول، رجب 1409.

عنان الدكتور محمد عبد الله... : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين. الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي، القاهرة 1408 هـ.

عوض، الدكتور يوسف نور.... : فن المقامات بين المشرق والمغرب. دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى 1979.

عيسى الدكتور فوزي سعد... : رسائل أندلسية. تحقيق الدكتور فوزي سعد عيسى، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط1، 1989.

غالب، الدكتور مصطفى... : ابن طفيل. صدر ضمن سلسلة في سبيل موسوعة فلسفية عن دار مكتبة الهلال بيروت، 1405هـ.

الغانمي، سعيد...... : اللغة والخطاب الأدبي. اختيار وترجمة سعيد الغانمي، صدر عن المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1993.

فروخ، الدكتور عمر... : ابن طفيل وقصة حي بن يقظان، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت 1402هـ.

فروخ الدكتور عمر.... : تاريخ الأدب العربي، ج4. دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، 1984.

فروخ الدكتور عمر... : تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون. دار العلم للملايين الطبعة الرابعة، 1983.

فيللو، كارلوني وفيللو... : النقد الأدبي. ترجمة كيتي سالم، صدر ضمن منشورات عويدات، بيروت وباريس، ط2، 1984.

قاسم الدكتور قاسم عبده قاسم والدكتور الهواري..... : الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث. دار المعارف، مصر 1979.

كار، إدوارد....... : ماهو التاريخ ؟. تعريب ماهر الكيالي وبيار عقل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، الطبعة الثانية 1980.

اللميلم، الدكتور عبد العزيز.... : حسان بن النعمان الغساني ودوره في فتح بلاد المغرب. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة 1413هـ.

لوهافر، سوزان..... : الاعتراف بالقصة القصيرة. تعريب محمد نجيب لفته، صدر عن دار الشؤون الثقافية العامة ضمن سلسلة المائة كتاب الثانية. بغداد، 1990.

مبارك الدكتور زكي.... : النثر الفني في القرن الرابع. دار الجيل، بيروت.

المراكشي، ابن عذاري..... : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1983.

مريدن، الدكتورة عزيزة..... :القصة الشعرية في العصر الحديث. دار الفكر، دمشق الطبعة الأولى، 1404هـ.

مفتاح، الدكتور محمد.... : دينامية النص، - تنظير وإنجاز. صدر عن المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثانية 1990.

مكي، الدكتور الطاهر...... : القصة القصيرة. دراسة ومختارات. دار المعارف، الطبعة السادسة، 1992.

نجم الدكتور محمد يوسف...... : فن القصة. دار الثقافة، بيروت الطبعة السابعة 1979.

النساج، الدكتور سيد حامد..... : القصة القصيرة صدر ضمن سلسلة كتابك عن دار المعارف في مصر.

النيسابوري، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري..... : صحيح مسلم. رئاسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد. الرياض 1400هـ.

هلال الدكتور محمد غنيمي....... : النقد الأدبي الحديث. دار نهضة مصر للطباعة والنشر، 1979.

هويزنجا، يوهان...... : أحلام وأفكار (نظرات في التاريخ الثقافي). ترجمة عبد العزيز جاويد، مراجعة الدكتور زكي نجيب محمود، صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1971.

يقطين، سعيد.... : الراوية والتراث السردي. المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1992.

الاختلافات بين العرب والبربر والصّقالبة في الأندلس

د. عصمت ناز (باكستان)

يعرض لنا تاريخ الأندلس في مراحله المختلفة صفحات باهرة من ضروب المجد الحربي والسّياسي وآيات ساطعات من ضروب التّمدّن والعرفان، ولكنّه يقدّم في نفس الوقت صفحات مشجية مؤثّرة كتقلّب الحدود وتعاقب المحن والانحدار البطيء المؤلم المؤدي للهزيمة والذلّ والسقوط.

وليس مجرى التّاريخ سوى تعاقب أجيال وأمم وتبدّل حضارات ودول، ولكن الصراع الطويل المضطرم الذي خاضته الأمّة الإسلاميّة في الأندلس، قبل أن تستسلم إلى قدرها المحتوم يبدو فضلا عمّا يتميّز به من ألوان البطولة الخالدة، صفحة رائعة من الاستشهاد المؤثّر قلما يقدّمه إلينا تاريخ أمة من الأمم التي اشتهرت بالذود عن حياتها وحرّياتها [1].

وتميّز العصر الإسلامي في الأندلس من الناحية الاجتماعية بانحلال العناصر التي كان المجتمع الأندلسي بوجه عام والمجتمع القرطبي بوجه خاص يتكون منها والتي استطاعت الخلافة الأمويّة أن تجعل منها جميعا كتلة واحدة ومجتمعا متماسكا. وكان هذا التفكك الاجتماعي نتيجة طبيعيّة للانحلال السياسي الذي أصيبت به الأندلس بعد سقوط الخلافة. فقد انحاز الصقالبة إلى شرق الأندلس وبقي الأندلسيون (الزعماء العرب) مسيطرين على جزء كبير من غرب الأندلس، أمّا البربر فتجمّعوا في الجنوب الشّرقي من شبه الجزيرة.

ورغم المميّزات الاجتماعية، لا نستطيع أن نضع أيّ فروق واضحة بين أصول العناصر العربيّة والمسالمة والمولدين، فقد تمّ التمازج بين تلك العناصر، ويجدر أن نطلق عليهم جميعا اسم «أندلسيين»، وذلك لصعوبة التميز الدقيق بين تلك الأجناس

(1) عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس : ص 16.

وخير دليل على ذلك أن كثيرا من العرب تزوجوا أندلسيات، بل إنّ كثيرا من خلفاء الأندلس كان يجري في عروقهم الدم الإيبيري من جهة الأمهات والجدّات، وظهر هذا واضحا في صفاتهم الجسميّة فقد ذكر ابن حزم :

«أنّ خلفاء بني أميّة ولاسيّما أولاد النّاصر كانوا مجبولين على تفضيل الشّقرة، لا يختلف في ذلك منهم مختلف، وقد رأيناهم ورأينا من رآهم من لدن دولة النّاصر إلى الآن فما منهم إلاّ أشقر نزاعا إلى أمّهاتهم حتّى صار ذلك فيهم خلقة، حاشا سليمان الظّافر فإني رأيته أسود اللمة واللحية، أما الناصر والحكم المستنصر رضي الله عنهما، فحدثني الوزير أبي رحمه الله وغيره أنّهما كانا أشقرين أشهلين، وكذلك هشام المؤيّد ومحمد المهدي وعبد الرّحمان المرتضى رحمهم الله، فإني قد رأيتهم مرارا ودخلت عليهم فرأيتهم شقرا شهلا وهكذا أولادهم وإخوتهم وجميع أقاربهم، فلا أدري أن كان ذلك استحسان مركب في جميعهم أم لرواية كانت عند أسلافهم في ذلك فجروا عليه [1]».

ونجد نفس الصفات في الصقالبة لأن شعرهم أشقر ولونهم أبيض وهم أيضا تأقلموا في المجتمع الأندلسي تماما بل أخذوا الأماكن الرفيعة في المناصب الحكومية، وكان لهم تأثير قوي، ويسمي آدم متز الصقالبة والترك من العبيد البيض «أرستقراطية العبيد»، وكان العبيد الصقالبة يقدّمون على الترك، حتى قال الخوارزمي «ويستخدم الترك عند غيبة الصقلبي [2]». ألف الصقالبة عنصرا مهما من عناصر المجتمع الأندلسي، وقد استطاع بعضهم أن يكوّن ثروات طائلة وأن يمتلك العبيد والأراضي الشاسعة، ونرى كثيرا منهم من وصل إلى مناصب الرئاسة في الدولة.

ومن الصقالبة نجد صاحب الشرطة وصاحب الخيل وصاحبَ الطّراز. ومن فتيان القصر الخليفي مرتاح وبكر ومعقل وميسور الفتى الكبير والصقلبي الجعفري وأفلح

(1) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب : ص 433، طوق الحمامة : ص 252.

(2) آدم متز، الحضارة الإسلاميّة : 1 / 280.

الوكيل وذكاء الوصيف الذي عينه الخليفة الحكم المستنصر ناظرا للأمير أبي الوليد هشام متكفلا بأموره، وكذلك شاطر الجعفري صاحب خيل الأمير هشام (1).

ورغم إخلاصهم للعامرين فقد شاركوا في المؤامرات التي قامت في قرطبة وسائر البلاد، فأحيانا نراهم منتصرين وأحيان منهزمين إلا أنّنا نراهم يظهرون دائما روح الإقدام والطموح والاستبداد (2). فرأينا نظيفا الخادم ونصرا المظفري ومن معهما من الغلمان يدافعون عن الزاهرة أمام البربر بزعامة «محمد بن عبد الجبّار» والعامة فيردونهم عنها، وكان عند المهدي غلام اسمه «واضح» (3) فاتخذ له المهدي جيشا وسار به واضح ونادى منادي واضح في سائر الثغور من حمل شيئا من طعام إلى محلة البربر فقد حلّ ماله ودمه، وكذلك راسل واضح زعيم النصارى ليحارب معهم ضد البربر. وذكر ابن حيان أنه بعد وفاة «فاتن الحكمي» نصب المهدي مكانه «جوذرا الحكمي» للقيام بأمر القصر. وقال ابن الأبار «ولم يكن بالبعيد منه في رفعة خلاله وثقته أمانته وفهمه ومعرفته لجميع أهل الدولة وأنه لم يقم على رأس أمير بالأندلس من هذا الجيل الغليظ الطباع من الصقلب كهذين الخادمين فاتن وجوذر سعة معرفة وحسن خدمة ولطف إشارة مع رحب صدر وشدة احتيال خلاف ما عليه الصقالبة (4)».

وفي سنة 400هـ / 1009م، وصل إلى قرطبة مجموعة من العبيد العامريّن من شاطبه وغيرها وكانوا يعملون في السّر على الإيقاع بالميدي. وفي ذلك العام أيضا كانت الواقعة بين البربر وواضح، وملك البربر جميع ما كان في عسكر واضح من مال وسلاح، وفي جولة أخرى كان المهدي قد دفع إلى واضح خمسين ألف دينار

(1) ابن حيان، المقتبس : ص73، 142، 185، 189.

(2) العبادي، الصقالبة في إسبانيا : ص17.

(3) هو واضح الصقلبي في عهد هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمان الناصر (المهدي). كان ضد البربر ووثب عليهم وظلمهم ظلما شديدا، وبقي أيضا مع هشام بن سليمان بن الناصر، وكانت له مكانة كبيرة عند حكّام قرطبة.

(4) ابن الأبار، التكملة : ص10-11.

ليوزعها على جند مدينة سالم، وانهزم واضح وبقي المال في داره، فنزلها «زاوي بن زيري» (1) فاحتوى ما في الدّار ورأى واضح وابن عبد الجبار في قتالهما للبربر أن يعاقدا الإفرنج على شروط منها تسليم مدينة سالم لهم فدخلها الإفرنج وضربوا في مجسدها النّاقوس وحوّلوا قبلتها، ثم شرطوا على واضح أن يلزم لكلّ منهم دينارين يوميّا إلى جانب الشّراب واللّحم، وللقومس في كل يوم مائة دينار (2).

وقد رأى الصقالبة في النهاية أنّه لا سبيل إلى القضاء على الفتنة إلاّ بالتخلّص من ابن عبد الجبّار وقتله فتآمرت طائفة من العبيد العامريين مع «واضح» الذي كان حاجبا للمهدي، وبعث واضح برأسه إلى البربر وكان يظن أنّ هذا الأمر يقضي على الفتنة ويرضي البربر، وبعد مقتل المهدي رجعت الخلافة إلى هشام المؤيّد فأرسل رسولا إلى سليمان المستعين (3) لإنهاء الفتنة، لكن الجند القرطبييّن قتلوا هذا الرسول ولم يستطع كل من واضح وهشام المؤيد إنقاذه. ثم وبعد ذلك رأى واضح الهرب من قرطبة أمام تلك الأمور المعقدة التي لا حلّ لها، وعلم الجند بذلك فزحفوا إليه مع ابن وداعة وقتلوه(4).

وفي سنة 401هـ / 1010م حاول ابن منذر وزير هشام ابن المؤيّد الذي لقّب بذي الوزارتين الصلح مع البربر، ولكنّ الفقهاء عارضوه (5).

وذكر ابن عذارى أنّه لمّا استولى البربر سنة 403هـ / 1012م مع سليمان على

---

(1) هو زاوي بن زيري من أسرة بربريّة رحل إلى الأندلس وسرعان ما أصبح له شأن في جيش البربر الذي جمعه بنو عامر، وأخذ الأراضي في ألبيرة وقد حلت محلّها غرناطة شيئا فشيئا فشرع زيري في تصريف الأمور بوصفه واليا مستقلاً على غرناطة واتخذ لقب سلطان. انظر: بستاني: 345-346/9.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب : 9 / 87، 91، 96، 105.

(3) المستعين : هو زعيم البربر في الفتنة الكبرى بقرطبة : 4 / 163، ابن عذاري، م. ن : 3 / 221.

(4) ابن عذاري، م. ن : ص105 ـ 109.

(5) ابن عذاري، م. ن. : 3 / 109.

قرطبة خاف العبيد العامريون على أنفسهم فهربوا إلى شرق الأندلس فاستولوا على بلنسية وشاطبة ودانية وغيرها، ولكن بالرغم من ذلك رأينا أسماء الصقالبة على العملة أثناء سنوات حكم سليمان ولا بدّ أن يكون هؤلاء وأمثاليم أصحاب دار السكّة في قرطبة.

قصد «عبد الله المعروف بالمعيطي» [1] في سنة 405هـ / 1014م مجاهدا العامري (صاحب دانية) فبايعه مجاهد أميرا للمؤمنين [2]. ودخل «علي بن حمودة» في سنة 407هـ / 1016م قرطبة وكان معه خيران العامري الذي كان طامعا أن يجد مولاه هشاما المؤيد حيّا، فلمّا لم يجده أظهر علي بن حمود خلافته وأراد قتل خيران العامري ففرّ خيران العامري إلى شرق الأندلس.

وكان للصقالبة دور في قتل الخليفة علي بن حمود، فقد قتله ثلاثة من صبيان أغمار منهم منجح وصاحباه وتوجهوا إلى «القاسم بن حمود» [3] فنصبوه خليفة.

وقد استطاع عدد كبير من الصقالبة منذ القرن 4 / 10 أن يحتلوا مكانة عالية في المجتمع القرطبي الأندلسي، وقد شارك الصقالبة في أحداث قرطبة الاجتماعية السياسية والاقتصادية، ولعل سبب ذلك يرجع إلى تمتعهم بمركز قوي في القصر الخليفي منذ عهد عبد الرحمان الناصر حتى الفترة الأولى من القرن الخامس الهجري، وكثير من خلفاء قرطبة وخاصة خلفاء الفتنة البربرية كان يتعشق هؤلاء الفتيان علاوة عن

---

(1) هو عبد الله بن عبيد الله بن الوليد من الأمويين، بويع بالخلافة في شرقي الأندلس وخطب باسمه ثم خلع، ورحل في آخر عمره إلى كتامة وتوفي بها سنة 432هـ / 1040م. انظر : ابن خلكان، الوفيات : 1 / 246، ابن سعيد، المغرب : 1 / 419.

(2) انظر : ابن بسام، الذخيرة : 1 / 28، ابن عذارى، م. ن : 3 / 122 – 128.

(3) هو قاسم بن حمود المأمون وأخو علي بن حمود. وقيل إنه يتشيع لكنه لم يظهر ذلك، بقي من 408/ 1017هـ حتى 412 / 1021هـ قام عليه ابن أخيه يحيي فهرب لكن رجع إلى قرطبة وتولّى الخلافه لكن غلب عليه أهل قرطبة وبقي أسيرا عند أخيه إدريس إلى أن قتل خنقا سنة 431هـ. انظر : الحميدي، جذوة المقتبس : ص 54 – 55.

الجواري الصقلبيات الذين كانوا يعملون في القصر الخلافي في خدمة الحريم، وكانوا عنصرا مهمّا من عناصر الإنتاج في المجتمع القرطبي، فقد عمل بعض هؤلاء الصقالبة في مهن مختلفة لدى الأرستقراطية وأصحاب البيوت الأندلسيّة. وعلى الرغم من الثورات والفتن بقي الصقالبة متمتعين بالحرية التي تمتعوا بها من قبل.

إنّ المجتمع الأندلسي الذي كان يتمتّع بالأمن في ظل الخلافة الأمويّة، فقد أمنه إثر سقوط قواعد الأندلس الشهيرة في سلسلة المعارك الطاحنة التي عانت منها الأمة الأندلسية منذ انهيار صرح الخلافة الأموية في الأندلس في أواخر القرن 4 / 10، وقامت دول الطوائف الصغيرة المفكّكة على أنقاض الدولة العظيمة الشامخة. وكان سقوط كل قاعدة من هذه القواعد الشهيرة التي كانت تسطع بمجتمعاتها وحضارتها الزاهرة خلال العصور الوسطى يمثل ضربة مميتة للدولة الإسلاميّة في الأندلس، ويحدث أعمق صدى في الدول الإسلامية بالشرق والغرب ويتنزع من وحي النثر والنظم أروع المراثي [1].

وكانت الأمّة الأندلسية كلما سقطت قاعدة من قواعدها الشهيرة في يد عدوتها القديمة المتربصة بها إسبانيا النصرانية، ألقت عزاءها في القواعد الأخرى، وهرع معظم السكان المسلمين إلى تلك القواعد الإسلاميّة الباقية استبقاء لحريتهم ودينهم وكرامتهم، حتى لم يبق من تلك القواعد الشهيرة سوى غرناطة وأعمالها تؤلف مملكة إسلاميّة صغيرة، قاست الأمرّين في مواجهة النصارى.

وهكذا اتسمت سياسة الأندلس في هذه المدّة [2] بالفرقة والتناحر حتى قيل : إن هذه الدولة الجديدة التي أنشأها الإسلام في إسبانيا كانت تحمل منذ البداية في داخلها بذور انحلالها. وكان هذا المجتمع الجديد الذي جمع الإسلام شمله ومزج بين عناصره يجيش بمختلف الأهواء والنزعات وتمزقه فوارق الجنس والعصبية.

---

(1) عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس : ص 17.

(2) عبد الرحمن حجي، تاريخ الأندلس : ص291.

وكانت القبائل العربية منذ بداية فتح الأندلس ما تزال تضطرم بمنافساتها القديمة وكان البربر الذين يتألف منهم معظم الجيش يبغضون قادتهم من رؤساء العرب وينقمون عليهم استئثارهم بالسلطة والأماكن الخصبة، وكثيرا ما رفعوا لواء العصيان والثورة، وكان المسلمون الإسبان حديثي عهد بالإسلام يشعرون دائما بأنهم رغم إسلامهم، أحط من الوجهة الاجتماعية من سادتهم العرب. رغم أن الإسلام يسوّي بين جميع المسلمين في الحقوق والواجبات ويمحو كل فوارق الجنس والطبقات. وكان العرب يشكّون في ولاء المسلمين الجدد، ويضنون عليهم بمناصب الثقة والنفوذ، هذا إلى أن العربي في الأقطار القاصية التي افتتحها بالسيف، لم يستطع أن يتنازل عن كبرياء الجنس التي كانت دائما من خواص طبيعته. وقد كانت إفريقية أقرب قطر إسلامي لإسبانيا وتتبعها حكومة الأندلس من الوجهة الإدارية تفيض أيضا بعناصر الثورة، فقد نزح إليها الدعاة من الخوارج منذ أواخر القرن الأول، وذاعت مبادئ الخوارج الثورية بين البربر بسرعة لحداثة عهدهم بالإسلام، وتعددت نحلهم وطوائفهم، واشتد الخلاف والجدل بينهم، وفسد من جهة أخرى ما بينهم وبين العرب من علائق الإخاء والمودة وكثر نزوعهم إلى الثورة وهذا ما يصفه ابن خلدون بقوله :

«ثم نبضت فيهم (أي البربر) عروق الخارجية فدانوا بها ولقّنوها من العرب النّاقليها من منبعها بالعراق، وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها من الأباضية والصفرية... وفشت هذه البدعة وأعقدها رؤوس النفاق من العرب وجراثيم الفتنة من البربر ذريعة إلى الانتزاء على الأمر فاختلوا في كل جهة، ودعوا إلى قائدهم طغام البربر، تتلون عليهم مذاهب كفرها ويلبسون الحق بالباطل فيها إلى أن رسخت فيهم كلمات منها ووشجت بينهم عروق من غرائسها. ثم تطاول البربر إلى الفتك بأمراء العرب» (1).

وسواء كانت الحقيقة تاريخية ثابتة أم كانت مجرد دعوى غير مؤكدة، فإنها كانت من الاتهامات المعلنة بقوة ضد الأمويين طوال تاريخهم، ولم يحاول الأمويون من

---

(1) ابن خلدون، العبر : 4 / 110، القسم الأول - المجلّد السادس ص 221، (ط بيروت 1959).

جانبهم أن يبعدوها عن أنفسهم ولم تتغير سياستهم مع مواطنيهم منذ قيام دولتهم حتى نهايتها، وكانت عندهم بعض الظواهر الدالة على ميلهم للجنس العربي والعصبيات العربية، وربما لم يكونوا متطرفين في هذا الميل إلى الدرجة التي اتهمهم بها أعداؤهم، ولكن كثيرا من ولاتهم كانوا يسرفون في عصبيتهم وفي ميولهم لأصولهم العربية، وقد جاء الأمويون لحكم المسلمين بعد ظهور قوة العرب ومجدهم وبعد نجاحهم في فتوحاتهم العظيمة زمن الخلفاء الراشدين ، فساهموا بدورهم في أمجاد العرب، وأوصلوها إلى غايتها بفتوحاتهم في أقصى الشرق وأقصى الغرب على السواء، وكانوا يشاركون شعبهم العربي في الإحساس بعظمة العرب وسؤددهم.

ولقد سنت سياسة الولاة الداخلية في الأندلس منذ العهد الأول سُنّة الصراع المرير بين القيسية واليمنية، فقد حكم كل من عنبسة بن سحيم الكلبي [1] وعذرة بن عبد الله الفهري [2] للقيسية. وكانت القيسية الأندلسية موغرة الصدر بطبعها لا تحتاج إلى من يحرك نيران أحقادها، فلم يكد هؤلاء الولاة يسيرون في سياستهم اليمنية الكلبية حتى امتلأت قلوب القيسية ألما وجاشت نفوسهم بالثورة وأصبحوا ينتظرون الفرصة المواتية[3].

ولما تولى أمر الأندلس ولاة قيسيون، كالهيثم بن عبيد الله الكناني [4] ومحمد بن

---

(1) هو عنبسة بن سحيم الكلبي فاتح من الشجعان ، كان عاملا بالأندلس وكانت فتوحاته بالحذق والمهارة أكثر من فتوحاته بالبطش والقوة. أصيب بجراحات في بعض الوقائع، توفي سنة 108 / 725. انظر : الحميدي، جذوة المقتبس ص 318 ; 507، ابن عذاري، البيان المغرب : 2 / 27.

(2) هو عذرة بن عبد الله الفهري، والي الأندلس بعد عنبسة بن سحيم، لم يعده ابن بشكوال من ولاة الأندلس. انظر المقري، نفح الطيب : 1 / 279، 4 / 16.

(3)حسين مؤنس، ثورات البربر في إفريقية والأندلس، المجلة التاريخية، بيروت1949 ج10 ص158.

(4) هو الهيثم بن عبد الله الكناني، والي الأندلس من الشجعان، أخذ ولاية الأندلس في أيام اضطرابها واستمر عشرة أشهر فقط. توفي بها سنة 111 / 730. انظر ابن عذاري، م. ن : 1 / 262، الزركلي، الأعلام : 8 / 104.

عبد الله الأشجعي [1] لقي الكلبيون اليمنيون خلال عهدهما بلاء شديدا وقد اشتد الهيثم على اليمنيين شدة أثارتهم و دفعتهم إلى العصيان علانية، وبلغ من شدته أن أنكر الخليفة الأموي في دمشق عليه ذلك رغم أنه قيسي وعزله وعاقبه عقابا صارما، وبدأت منذ عهد الهيثم بن عبيد الله في الأندلس خصومة القيسية واليمنية الصريحة الخطرة ولم تظهر هذه الخطورة نسبيًا في هذه الفترة، لأن المسلمين كانوا منشغلين وقتئذ بالحروب فيما وراء البرانس.

وقد تجلت حروب العصبيات والصراع بين القيسية واليمنية، ثم الصراع بين العرب والبربر في ولاية عقبة بين الحجاج السلولي، ذلك أن هذا الوالي أوقع به الفرنجة الهزيمة وأرسل إليه عبيد الله بن الحبحاب والي افريقية يطلب منه النجدة لقيام البربر بثورة في بلاد المغرب ويطلب منه مهاجمة سواحل المغرب الشمالية، فترأس قوات كبيرة وشن حملة بلغ فيها ساحل إفريقية ووضع السيف في رقاب كل من وقع في يده من البربر ولكنه لم يوفق في إخماد الفتنة. والحقيقة أن حرب العصبيات هذه هي محور السياسة الداخلية في الأندلس وفي إفريقية.

ولما انتشرت ثورة البربر بصورة سريعة، حشد عبيد الله بن الحبحاب جميع الجنود الذين تحت يده وسلم قيادتهم إلى خالد بن أبي حبيب الفهري والتقى بزعيم ثورة البربر ميسرة المذغري في أرباض طنجة فاقتتل معه قتالا شديدا ثم انصرف ميسرة إلى طنجة حيث قتله جنده، فولى البربر زعيما آخر هو خالد بن حميد الزناتي مما أدى إلى اضطراب صفوف العرب، فألقوا بأنفسهم على صفوف العدو، فقتلوا عن آخرهم وسميت هذه المعركة بوقعة الأشراف لأنه قتل فيها نخبة من أشراف العرب [2].

استقر رأي العرب على خلع عبيد الله لاعتقادهم أنه تسبب في إحلال هذه النكبات

---

(1) هو محمد بن عبد الله الأشجعي، تولّى الأندلس سنة 113 / 731 وبقي شهرين فقط، كان واليا فاضلا. المقري، م. ن : 1 / 220، 279، 4 / 17.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب : 1 / 53.

بهم. ولما بلغ الخليفة الأموي في دمشق هزيمة جيشه وثورة البربر أمر بإعداد جيش كبير وأسند قيادته إلى قائد قيسي هو كلثوم بن عياض القشيري [1] وأوصى بأن يخلفه ابن أخيه بلج بن بشر القشيري وأذن لقائده باستباحة دماء جميع النواحي التي استولى عليها وقتل كل من يقع في يده من العصاة، وكان في صحبة كلثوم بن عياض موالي أمويين لإرشاده في مسيرته الحربية لأنهم يعرفون الإقليم فوصلوا إفريقية في صيف سنة 123 /741 ولكن عرب هذه الولاية استقبلوا أهل الشام أسوء استقبال وأرسلوا إلى حبيب بن أبي عبيدة [2] يخبرونه بأن كلثوم ومن معه عازمون على الاستقرار في إفريقية، والتقى الفريقان وقامت بينهما منازعات انتهت سريعا، وانضم جنود الفريقين لمقاتلة البربر وأسفرت هذه المعركة عن قتل كلثوم وموالي الأمويّين وانهزم العرب.

ومضى أهل الشام إلى الأندلس ومعهم بلج بن بشر وعبد الرحمان بن حبيب بن أبي عبيدة وعاد بعضهم إلى تقيروان. وصار أمر العرب إلى بلج فسار ومن معه إلى سبتة واستولوا عليها ومضى البربر في إثر فرسان الشام وحاولوا أن يستولوا بالقوة على سبتة ولكنهم لم يستطيعوا ذلك، فخرجوا إلى ما حولها من الحقول واضطر الشاميون إلى طلب المساعدة من والي الأندلس في ذلك الوقت وهو عبد الملك بن قطن الفهري الذي تولى الولاية عقب مرض عقبة السلولي [3]. وكان بلج قد أرسل إلى عبد الملك بن

---

(1) هو كلثوم بن عياض القشيري أمير إفريقية ولاه هشام بن عبد الملك بعد عزل عبيد الله بن الحبحاب وسيّره إلى إفريقية بجيش عظيم سنة 122 / 739 فقتل في معركة مع البربر في وادي سبو من أعمال طنجة. انظر : الزركلي، الأعلام : 5 / 231.

(2) هو حبيب بن مرة أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري القرشي، من وجوه أصحاب موسى بن نصير، قائد من الولاة، ولد ونشأ بمصر ودخل الأندلس مع موسى ووفد على سليمان بن عبد الملك مع جماعة يحملون رأس عبد العزيز بن موسى بن نصير، ثم عاد إلى إفريقية فولي قيادة الجيش في قتال العصاة من البربر وقتل في إحدى معاركه معهم سنة 124 / 742. انظر : الحميدي، جذوة المقتبس : ص32 ، 33 ، 311 ، 429. الضبي، بغية الملتمس : ص 274.، م. ن : 2 /172.

(3) ابن عذاري، م. ن : 1 / 54.

قطن يطلب منه السماح له بالعبور إلى إسبانيا، لكنه رفض مطلبه هذا بشدّة، ولكن أمرا طارئا لم يكن في الحسبان أرغم عبد الملك على تغيير موقفه، فعلى الرغم من أن البربر المقيمين في شبه الجزيرة لم يصادفوا مثل هذا الاضطهاد الذي صادفه إخوانهم في المغرب إلا أنهم شاركوهم كراهيتهم للعرب.

لقد تمّ على أيديهم فتح هذا الإقليم ولم يفعل موسى والعرب أكثر من جني ثمار النصر الذي أحرزه طارق وجنوده من البربر على جيش القوط وفاز العرب بنصيب الأسد حين جاء الدّور لتقسيم ثمار الفتح، فالعرب كانت لهم الولاية وأخصب البقاع وأقصوا أتباع طارق إلى الجبال الوعرة فوقع عليهم عبء مكافحة النصارى الذين نظموا حركة مقاومة خطرة في منطقة نافار الجبلية (النبرة) وبلاد البشكنس[1]. ولم يستطع الولاة القضاء عليهم لوعورة الجبال التي استقروا بها، ففي أثناء اضطراب البلاد وانشغال الولاة كانت هذه العناصر تنمو وتشتد داخل هضابها النائية. وكانت هي نواة المملكة النصرانية القوية التي نشأت بسرعة واشتدّ ساعدها حتى استطاعت في نحو قرن أن تنافس الإسلام وتنازعه سيادة إسبانيا[2].

ذهب الخوارج من المغرب إلى إسبانيا لنشر دعوتهم ومقاومة ولاة الأمويين بها، فقامت في جليقية فتنة دينية كفتنة المغرب وامتد لهيبها إلى الشمال بأجمعه ماعدا إقليم سرقسطة لأنّه كان البلد الوحيد في هذه المنطقة الذي غلب عليه العرب، ولحقت الهزيمة بالعرب في كل مكان فاتخذ ثوار الخوارج غاليسية وماردة وقليبرة وطلبيرة مراكز لهم وقسم ثوار البربر أنفسهم إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول ذهب إلى طليطلة والقسم الثاني مضى إلى مهاجمة قرطبة والقسم الثالث زحف على الجزيرة الخضراء للاستيلاء على الأسطول الراسي في خليجها ثم عبور المضيق والقضاء على أهل الشام

---

(1) دوزي : تاريخ مسلمي إسبانيا : ص 156.

(2) حسين مؤنس، ثورات البربر : 1 / 196.

الموجودين في سبتة ونقل جماعة من بربر إفريقيّة إلى الأندلس [1]. فاضطر عبد الملك ابن قطن الفهري إلى طلب المعونة من أهل الشام الذين كانوا في سبتة واشترط أن يخصّص لهم مراكب لتنقليم وأن يغادروا إسبانيا حالما يقضى على الثورة، وأن يسلمه كل فريق منهم عشرة من شيوخهم يضعهم في إحدى الجزر لتكون رؤوسهم ضمانا لصدق تنفيذ الاتفاق. واشترط الشاميون من جانبهم على عبد الملك أن ينقلهم جملة إلى المغرب وأن ينزلهم على ساحل ليس للبربر فيه سلطان، ثم وقع نقل عرب أهل الشام إلى الجزيرة الخضراء ومدهم بالمؤونة والثياب، وانضموا إلى قوات ابن قطن، والتقت القوات المتحدة بالبربر أولا في شذونة (مدينة سدونيا) فهزم البربر وأصاب الشاميون منهم غنائم كثيرة [2].

ولما تخلص عبد الملك بن قطن من هذه الثورة طالب بلج القشيري ومن معه بتنفيذ المعاهدة التي بينهما والرحيل عن الأندلس، لكن أهل الشام رفضوا الرحيل واستغلوا فرصة وجود عبد الملك بن قطن بقصره، فثاروا عليه وخلعوه من الولاية، ونادوا ببلج واليا على الأندلس سنة 123 / 740، ومع ذلك لم يستتب النظام والهدوء واستمرّ البغض والحقد بين الشاميين واليمنيين، ثم تجلّى الخلاف بين القبائل نسبيا سنة 129 / 747 واستقر الأمر بتولّي يوسف بن عبد الرحمان الفهري الذي لم يبق له بعد هذا النصر منافس وإن لم يكن له من السلطان سوى اللقب لاستئثار الصميل بن حاتم بالأمر، لذلك كان يوسف يخشى الصميل[3]. ورأى أن يبعده عن قرطبة إلى سرقسطة وأعمالها للتخلص منه، فلم يبد الصميل اعتراضا على ذلك واصطحب معه اتباعه ومواليه الذين بلغوا مائتي رجل. وكانت الأحوال في تلك الفترة مضطربة في بلاد الأندلس وفي تلك الأثناء كانت الاضطرابات على أشدها بين العرب وانقطعت الصلات بين مسلمي

(1) حسين مؤنس، م.ن : 1 / 196.

(2) شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب : ص 79.

(3) المقري، نفح الطيب : 1 / 135.

أربونة وبين قرطبة، فحاول ملك الفرنج الاستيلاء على القواعد الإسلامية في الشمال بعد مقاومة عنيفة من الحاميات الإسلاميّة سنة 136 / 753 [1].

أما فيما يتعلّق بالقيسيين واليمنيين فقد ساد التفاهم بينهم في هذه الفترة ولكن هذا الهدوء كان هدوءا ظاهريا لأن اليمنيين كانوا يؤلفون غالبية مسلمي الأندلس. وكانوا يرون أنهم أحقّ بالأندلس من غيرهم وخاصة أن المكانة العليا كانت للصميل والقيسيين من اتباعه فكانوا ينتظرون أوّل فرصة للثورة على يوسف الفهري[2].

واجتمع اليمنيون والبربر لقتال يوسف والصّميل. وتكوّن جيش كبير من اليمنيّة والمضريّة والبربر وضيّقا على الصّميل الحصار. ولم تفلح محاولته للاستنجاد بيوسف الذي ضعفت سلطته، لذلك اتجه الصميل إلى القيسيّين

كان لهذا النزاع الذي حدث بين اليمنيين والقيسين أثر بالغ في تاريخ الأندلس، فقد انصرف اليمنيون إلى التجارة وبرعوا فيها وأصبحوا من أهل الغناء والثّروة وتفرق بعضهم في ريف البلاد، واشتغلوا بالزراعة واختلطوا بالسكان وعملوا على نشر الإسلام واللغة العربية، وقد ظهر أثرهم في ميدان العلوم وأصبحوا أساتذة الأندلس في الفقه وعلوم والدين فيما بعد، فكانوا من أوائل مؤسّسي الحركة العلمية بالأندلس. وكانوا خلال هذه الفترة الحافلة بالثروات حزبا معارضا ظل ينتظر فرصة مواتية للعودة إلى الحكم، فلما أطلّ عبد الرحمان بن معاوية ظنوا أن الفرصة مواتية فأيدوه.

أما عن حصاد هذه السنوات الدموية في تاريخ الأندلس فإن المسلمين خسروا نحو ربع ما فتحوه من البلاد نتيجة لنمو المقاومة النصرانية في الشمال، وتجذّرت في نفوس العرب والبربر رواسب الكراهية التي ظلت قائمة قرونا طويلة، وسفكت بأرض الأندلس دماء كان يجب أن تسفك من أجل غرض أسمى، فقد طعن هذه الصراع المدّ الإسلامي وراء البرانس، طعنة نجلاء، بل ستتعرض بلاد الأندلس للعدوان في عهد

(1) المقري، م. ن. : 139.

(2) عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس : ص 134.

شارلمان، ولو كانت هذه القوة قد تضافرت في جهد مشترك للقضاء على المقاومة النصرانية في الشمال لما تطاولوا على ديار المسلمين بالإغارة. وكانت بلاد الأندلس في حاجة إلى منقذ غير متورط في الصراعات القبلية فقدّر أن يكون المنقذ عبد الرحمان ابن معاوية بن هشام [1].

ولا عجب من كلّ ذلك فقد قام الصراع العرقي بين العرب والبربر الذين كانوا يعتدون بأنفسهم على أساس أن الفاتح الأول طارق بن زياد منهم وأن الفتح قد تم على أيديهم، وأنهم لهذا أحق من غيرهم بمقاليد الحكم.

هذا عرض موجز لتاريخ عصر الولاة أو عصر المرحلة الثانية من الفتح في الأندلس، وقد انتهى على يد عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية في الأندلس. والواقع أن ما استجد في هذا العصر من أحداث ستكون له نتائج يظهر أثرها فيما يلي من مراحل تاريخ المسلمين بالأندلس [2].

لقد اصطدم العرب بتيار رفض من قبائل البربر المتشبثة بكياناتها التقليدية المتوارثة، وكان للطبيعة الجبلية بكهوفها ومضائقها وشعابها التي انعكست بدورها على طبيعة السكان، الدور البارز في تنشيط حركة المقاومة الداخلية سواء في التصدي لحملات الفتح على مدى سبعين عاماً من المحاولات الصعبة أم في الثورة على الأرستقراطية العربية المهيمنة على الحكم في وقت لاحق، وهذا الواقع لم يكن يعني للبربر سوى الحرمان من المشاركة السياسية والعسكرية التي تجلت في عهد موسى بن نصير. ومن جهة أخرى فقدان الاستقلالية القبلية والفردية، وكان للفتح آثار عملية كبيرة، منهما أنه كان يثير حماس المؤمنين من العرب والبربر، ويجعلهمْ يندفعون نحو ميدان المعارك في الأرض الجديدة تاركين وراءهم إفريقية الشمالية وهي لا تزال بحاجة لمزيد جهودهم. وابتدأ الصراع في التاريخ المذكور وكان أشبه بالمعارك

---

(1) شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب : ص82.

(2) عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس : ص49.

الطويلة التي كان العرب فيها لا يعرفون لأعمالهم نهاية، أو لا يدرون متى تأتيهم الفرصة للتخلص من أخطار هذه الحياة ومشقتها وقد حاربوا أمة كثيرة العدد وقفت منهم موقف العداء ورفضت حياة السلام تحت نفوذهم، وعاشت في مناطق واسعة، جعلت الفاتحين يقعون في أخطاء ناشئة عن جهلهم بها، ولم يتسن لهم التخطيط الهادف لتخليص المواطنين المغاربة من وثنيتهم ونقلهم إلى صفوف المؤمنين.

وبعد أن حاولت هذه الجماعات أن تتفهم أغراض العرب الحقيقية من النشاط كله، لم يجدوا في هذا النجاح ولا في هذه المحاولة أملا كبيرا يساعد على اختصار مدة الصراع، والعرب أنفسهم قد تورطوا في حروب أهلية أثارتها خلافاتهم الداخلية الناشئة عن احتياج دولتهم الكبيرة إلى نظم إدارية كفيلة بحفظ تماسكها، وإلى البحث عن حلول جديدة لمشكلاتها المعقدة، وكانوا لا يملكون النظم المطلوبة لأنهم كانوا في فجر وجودهم كقوة كبيرة لأول مرة في التاريخ لا يعرفون الاتفاق على رأي في علاج المشكلات، وداهمتهم الأحداث الخطرة من داخل دولتهم ذاتيا، وشغلهم التنافس على رئاسة الدولة عن الفتح أو أعجزهم عن تعهده بالعناية والاهتمام [1].

لقد ظهر الأمويون بالأندلس كأنهم كانوا على هوى مخالف لسياسة أسلافهم حكام دولة الأمويين بالشام. وقد وجد الأمويون طوال تاريخهم بالشرق قوتهم وعصبيتهم في العرب وفي موالي العرب، فحكموا بهم دولتهم واستطاعوا بهم أن يوسعوا حدود هذه الدولة، وأما الأمويون حكام الأندلس فقد وجدوا العرب يقفون في صفوف المعارضين لهم، أو المنافسين لسلطتهم، وكان البربر هناك يؤلفون قوات كبيرة تعرض جهودها وخدماتها على الأمراء في مقابل الرعاية والمكافآت المالية منهم، بالإضافة إلى قوات الموالي والصقالبة والمولدين والمرتزقة المسيحيين، وكان في هؤلاء جميعا ما يكفي أغراض الأمويين لإقامة الدولة وحمايتها من كل أنواع السيطرة أو الوصاية التي

(1) علي حبيبة، مع المسلمين في الأندلس : ص35 – 36.

حاولت قوات العرب المتنافسة أن تفرضها عليهم [1].

لقد كانت دولة الأمويين بالأندلس منذ تأسيسها تخشى من منافسة العناصر العربيّة لها وتسعى إلى إيجاد عناصر بديلة وقوية في جيشها، ورغم جهود العرب في إقامة هذه الدولة، فإن الأمويين لم يفهموا أن هذه الجهود لم تكن تقدم باسم الولاء للدولة أو لصاحبها وحده، وإنما كانت تقدم باسم المنافسة بين العناصر العربية القوية هناك، ولم يرد أصحاب الدولة أن يحكموا البلاد باسم جماعة من مواطنيهم، وأن يمثلوا وجهة نظر واحدة لجماعة من الناس، بل أرادوا أن يحكموا الجميع باسم دولتهم وحدها [2]. فلم يميلوا إلى أحد العناصر العربية المتنافسة، وكانت منها العناصر اليمنية التي ساهمت بجهدها في قيام الدولة وحراستها، وترك الأمويون العصبيات المختلفة لظروفها وحدها، وراقبوا تصرفاتها وطلبوا أيضا من الخارج قوات أخرى عتيدة أعانت على حراسة دولتهم واستمرارها وكانت تساهم في ذلك مع قوات العرب التي تساوت عندهم مع غيرها [3].

لقد تطورت الدولة الأموية في سياستها القبلية دون أن تقدر أبعادها المستقبلية على مؤسسات الحكم فتفشت بذرة العصبية في مختلف الأقاليم دون أن تتمكن من كبح جماحها، وفي الحقيقة يمكننا أن نفهم الحكم الأموي بأنه كنظام أوتوقراطي، كان المسؤول فيه سواء الخليفة أم الوالي يتصف بالحكم المطلق، ومن طبيعة هذا النظام الفردي ارتباطه العضوي بالمسؤول الأول، وهذا بدوره لابد أن يعتمد على جهازه العسكري لبسط نفوذه.

وفي كل أدوار التاريخ كانت هذه الأنظمة تبرز أسماء عسكرية لامعة ترتبط بانتصارات وفتوحات، إلا أنها لا تلبث أن تصطدم بكثير من المشاكل والقضايا

---

(1) علي حبيبة، م. ن : ص208.

(2) بلنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي : ص484.

(3) بلنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي : ص485.

الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وهي بدورها نتيجة تحكم الفردي المطلق. وإذا كان الحكم الأموي في الشرق قد استطاع أو كاد أن يحسم مشاكل الصراع الاجتماعي القبلي في محيط غير متعدد الجنسيات، فالصورة تختلف في ولايتي المغرب والأندلس حيث تتعدد الشعوب والقبائل وتتنوع الأهداف والمصالح. فإذا كان الحكم والسيادة المطلقة للعرب فإن ذلك لم يقض على العصبيات القبلية والعرقية. ففي عهد موسى بن نصير تحالف البربر والعرب في صورة متكافئة لتحقيق أهداف عسكرية واضحة، على عكس ما ساد هذه العلاقات بين الطرفين فيما بعد من اختلال وابتعاد كل منهما عن الآخر لا سيما البربر.

كان البربر عنصرا قويا في الفتنة يكنّون دائما الحقد والكره للعرب ويحرصون على رد ما انتزعوه منهم خلال الفتنة من الثروات، ثم هنالك ما هو أشد خطرا على دولة الإسلام في الأندلس ونعني إسبانيا النصرانية التي استطاعت أن تخرج بسرعة من غمرة الهزيمة والفوضى وان تنتظم في مملكة جديدة بالشمال، وكذلك مملكة الإفرنج القوية التي استطاعت أثناء الفتنة أن تنتزع الأراضي الإسلامية فيما وراء جبال البرت، وكان نصارى الشمال والإفرنج يتربصون يومئذ بالأندلس ويرون في تفرقها وضعفها فرصة صالحة للعمل [1] ويتصلون بكثير من زعماء البربر والخوارج ويمدونهم بالنصح والعون، ويتخذونهم وسائل لتحقيق مشاريعهم في تمزيق الأندلس وانتزاع أطرافها، وكانت الأندلس طوال ذلك العهد بركانا يتأجج بضرام الحرب والثورة والمؤامرة ولكنها صمدت لتلك الأخطار كلها واستطاع عبد الرحمان الداخل بكثير من الذكاء والإقدام والعزم والجلد أن يغالب تلك الأخطار والقوى، وأن يقبض على مصاير الأندلس بيده القوية، وأن يحيي سلطان أسرته المندثر في ذلك القطر النائي ليستقر ويزدهر أكثر من قرنين، وكان تفرّق خصومه أهم عامل في ظفره، فلم تكن ثمة زعامة شاملة بعد يوسف والصّميل، يجتمع الخصوم حولها وكانت القوى المعارضة

---

(1) عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس : ص159.

مشتتة في النواحي والمدن تعمل كل بمفردها حول زعيمها المحلي، وكانت فوق ذلك يعارض بعضها بعضا في معظم الأحيان، وقد استطاع عبد الرحمن أن يقدر هذا الظرف وأن يستغله، فعمد إلى لقاء المعارضة في الميدان واستطاع أن يخمد ثوراتهم وأن يحطم قواهم بالتعاقب [1].

كان عبد الرحمان في كل مرة يزداد قوة ومناعة ويزداد خصومه ضعفا وتفرقا حتى قضى عليهم جميعا. وبعد أن ظفر صقر قريش عبد الرحمن الداخل في الأندلس وأرسى أسس الدولة هناك ووطد أركان الملك وثبت دعائم الحكم، أخذت الرغبة أيضا في الانتقال إلى الأندلس تزداد، إذ دخلت البلاد بقيام الدولة الأموية بالأندلس عصر الأمن والرخاء والاستقرار والازدهار، فقد وفد إلى الأندلس كثير من العرب وعلى الأخص من الأمويين ومواليهم ومن عشائر العرب التي تربطها بالأمويين روابط وأواصر متينة.

وحيثما أقام العرب في الأندلس فقد عملوا مع أهل البلاد جميعا في التجارة والزراعة والصناعة واختلطوا بالسكان بتواضع في شتى الميادين، وشاركوهم في الحياة العامة وعملوا على التقرب إليهم وإقامة العدل بينهم، ذلك أن العرب في الأندلس كانوا يشعرون أن عليهم رسالة عظمى، كما كان شأن غيرهم من العرب في البلدان المفتوحة الأخرى، فأخذوا ينهجون هذا المنهج في الحياة الاجتماعية ليظهروا بمعاملتهم السمحة وبتواضعهم، امتياز دينهم ليؤمن الناس به، وليصبحوا جميعا أمة واحدة على طريق واحد، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان العرب يعتزون بدينهم الإسلام وبنسبهم العربي ويشعرون بمسئوليتهم العظمى كأمناء على نشر دين الله ورعاية تلك الرسالة السماوية رسالة الإسلام ويفخرون أيضا بنصرهم ودولتهم وكيانهم لذلك فقد عملوا على تقوية كيانهم العربي والاحتفاظ به والتعصب له [2].

---

(1) م. ن ص 160.

(2) عبد الله بن عواد، الشعر الأندلسي : ص53.

كان إحساس العرب بأصلهم قويا إلى آخر أيام عهودهم في الأندلس، ولم يذكر التاريخ أنهم نسوا هذا الأصل ولا أنهم يوما ما بعدوا عنه أو تنكروا له، بل استمروا متمسكين بأصولهم وأنسابهم يتغنون بعروبتهم وقوميتهم، وبأمجادهم وتاريخهم المشرق، وكانوا دائما يتباهون ويتفاخرون فيما بينهم بالانتساب إلى عرقهم العربي الأصيل كأمة عظيمة لها حضارتها الباهرة وتاريخها المجيد ودولتها الراقية [1].

والظاهر أن السبب في انتشار هذه المظاهر وتفاقم الأمور في المغرب الإسلامي يرجع إلى السياسة التي سلكتها الدولة الأموية مع الرعية وأهل الأمصار المفتوحة، وهي السياسة القائمة على مبدأ محاباة العنصر العربي، وسيادته على العناصر المسلمة الأخرى كالفرس والروم والقبط والبربر والقوط وغيرهم من الشعوب التي دخلت الإسلام، وأصبحت جنوده، بل اعتبرهم الأمويون مواليها وترتب على هذه السياسة أن أصبح المجتمع الإسلامي في عصر الدولة الأموية يتشكل من طبيعتين متميزتين طبقة الأرستقراطية العربية الحاكمة، تتربع على قمة هرم المجتمع الإسلامي والطبقة المستضعفة التي تتكون من الموالي الذين حرموا من المساواة الاجتماعية والسياسية على الرغم من اعتناقهم الإسلام [2].

بينما كانت حوادث هذا الانقلاب الحاسم في مصاير الإسلام تجري في المشرق، كانت حوادث الأندلس تؤذن بانقلاب عظيم آخر. وكانت الفتن والحروب الأهلية المتعاقبة تدفع بالأندلس إلى مصير مجهول تخشى عواقبه وتعصف تباعا بمنعة الإسلام في المغرب، وتشجع الفرنج ونصارى الشمال على اقتطاع الأطراف النائية، والتوغل في الأراضي الإسلامية، على عكس حوادث المشرق التي كانت تتمخض عن عوامل وأسباب أخرى، لكن في نفس الوقت اضطربت أحوال الدولة المسيحية وابتسم الحظ

---

(1) م. ن. ص 54.

(2) عبد العزيز فيلالي، العلاقات السياسية : ص134.

المسلمين، وكان في مقدورهم أن يستغلوا هذه الفترة ويتوسعوا في غالة [1] ولكنهم انهمكوا في القضاء على ثوراتهم الداخلية بين العرب والبربر من جهة، وبين اليمنيين والقيسيين والمضريين من جهة أخرى.

وبين هذه الثورات الداخلية خرجت كثير من مدن سبتمانيا عن الحكم الإسلامي وبعد ذلك ومع تلك الغزوات امتنعت دولة أربونة على المسلمين، واستعصت عليهم، ولم يمض عهد قصير حتى انقطعت هذه الغزوات تماما بانقطاع الإتصال بين الأندلس وسبتمانيا [2]. وكان لهذه الفتنة التي اضطرمت في إفريقية بين العرب والبربر، وما اقترن بها من الأحداث الخطرة صداها في شؤون الأندلس، لأنّ الأندلس كانت تتبع يومئذ إفريقية. كما كان لثورة البربر في المغرب أثرها في تحريك البربر في العدوة الأندلسية، وقد سبق أن بينا كيف كان البربر في شبه الجزيرة الإسبانية يجيشون سخطا على العرب لما استأثروا به دونهم من مغانم السيادة والحكم.

وفي الشرق أعلنت الخلافة العباسية سنة 132 / 749 واتجه الخلفاء العباسيون إلى استئصال الأمويين، وقد استطاع عبد الرحمن بن معاوية أن يفلت من الموت بأعجوبة، ولم يأبه لكلمات الأمان من العباسيين، ولاقى في طريقه ألوانا من الصعوبات، فلما وصل إلى إفريقيّة أكرموه، وعندما أحس ببعض الإطمئنان قفز من الشمال الافريقي إلى إسبانيا سنة 138 / 756. وعن فترة الصراع التي اجتازها عبد الرحمن في مطلع عهده بالأندلس يقول المقري :

« وفي الأندلس تجمع حول عبد الرحمن كل من كان من بني أمية، وممن يقول بقولهم، ومن يجد على يوسف الفهري موجدة لظلمة جرت عليه أو لتقصير قصر به أو لعطاء حرمه، فاجتمع عنده جمع كبير وقصد بهم قرطبة دار إمارة الفهري فبرز إليه الفهري في جيش لا يحصى كثرة، فاقتتلا وتحاربا مدة عام تقريبا وهزم في النهاية

(1) أخبار مجموعة . ص 42.، ابن عذاري، البيان المغرب : 2 / 45.

(2) عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين : ص152.

وقتل، واستبيح عسكره، وقتل أكثره، ودخل عبد الرحمان قرطبة ودانت له الأندلس بأسرها في سنة 138 / 756» [1].

وكيفما كان الأمر، فقد استطاع الأمير عبد الرحمن الداخل إطفاء نار الفتنة بين اليمنيين والقيسيين وحاول أن يوفق بين العرب البلديين والشاميين وأن يعزز موقفه منهم بفتح الأندلس أمام طبقات النازحين إليها من بلاد المشرق من عائلته وأقربائه وأنصاره ومؤيديه من بلاد إفريقية والمغرب سواء كانوا عربا أم بربرا.

(1) المقرى، نفح الطيب : 1 / 329.

من تاريخ الطب العربي بإفريقية

زاد المسافر

المقالة السادسة في
الأدواء التي تعرض في آلات التناسل

لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الجزار
(284/898م - 369هـ/979م - 980م)



تحقيق وتقديم

أ.د. جمعة شيخة

أ.د. الراضي الجازي

تونس
1999

سيرة كاتب موحدي

أبو القاسم البلوي الإشبيلي

(الجزء الأوّل)

د.محمد مفتاح الخَمْسي. كلية الآداب. فاس.

ينتسب البلويّون سواء تعلق الأمر ببلويي المشرق أو الأندلس أو المغرب إلى قبيلة "بلي" العربيّة اليمنيّة. وهم ولد بلي بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، فهي إذن قبيلة جنوبية كانت تسكن في القديم منطقة مأرب، وذلك بدليل قول الشاعر اليمني الملثم بن قرط البلوي (1) :

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ الـحَـيَّ كَـانُـوا بِـغِـبْـطَـةٍ ... بِـمارب إذ كَـانُـوا يَـحُـلُّـونَـهَا مَـعًـا

بَـلِـيٌ وَبَـهْـرَاءُ وَخَـوْلاَنُ إِخْـوَةٌ ... لِـعَمرو بْنِ حَافٍ فَرْعٌ قَدْ تَـفَـرَّعَـا

غير أنّ الهمذاني وهو المؤرّخ العالم بالتوزيع الجغرافي للقبائل اليمنيّة العارف بها حقّ المعرفة يجعل منازل بلى إلى الشمال الغربي من المدينة المنورة (2).

كان البلويون كثيري الترحال والتنقل، يشاركون في الحروب التي يخوضها المسلمون في جميع البقاع، ومن هنا يمكن أن نعتبر البلويين الداخلين إلى الأندلس كانوا قد وفودوا عليها، أثناء الفتح الإسلامي ثم انتشروا بعد ذلك في مناطق متعددة وأماكن متفرقة من بلاد الأندلس.

وقد حاولنا أن نتتبع البلويين المقيمين بالأندلس من خلال بعض كتب التراجم والطبقات فوجدنا أن توزيعهم الجغرافي كان على الشكل التالي :

---

(1) منتخبات في أخبار اليمن ص 9.

(2) وداد القاضي : بشر بن أبي كبار البلوي . ص : 25.

المكان	العدد	المصادر
قرطبة	4	التكملة130/1. التكملة292/1. الديباج المذهب179/2. الذيل69/4
ألمرية	3	الإحاطة 382/2. الإحاطة 218/3. أزهار الرياض 309/1.
طرطوشة	1	التكملة 2 / 495. الذيل والتكملة 6 / 16.
مالقة	2	أدباء مالقة ص 122. وكذلك ص 208.
جيّان	1	الديباج المذهب 354.
شاطبة	1	الذيل والتكملة 6 / 302.
إشبيلية	3	الذيل والتكملة 1/1 ص106. برنامج شيوخ الرعيني. 112.
غرناطة	1	تاج المفرق. ص 16.
لبسة	2	الإحاطة (نصوص جديدة) ص 173 و221.
جزيرة شقر	1	الذيل والتكملة 6 / 79.
إلبيرة	1	الإحاطة (نصوص جديدة) ص 226.
برجة	1	الذيل والتكملة 1 / 1 ص 449.
وادي آش	2	ثبت البلوي. ص 17 و20.

من خلال الجدول السابق يتبين أن استقرار البلويين لم يكن بمكان واحد، بل كانت تحركاتهم تتم من مدينة إلى أخرى ومن منطقة إلى منطقة، ومن ثم وجدنا بعض البلويين القرطبيين يرحلون إلى شذونة أو إشبيلية، وبعضهم الآخر كان من باجة ثم تركها ودخل قرطبة. كما وجد أيضا أن بعضهم من طرطوشة وقد رحل إلى مرسية وأن الذين سكنوا مالقة كان أصلهم من إشبيلية. ويستفاد من الجدول السابق أيضا أن الرقعة الجغرافية التي كان البلويون يتحركون فيها هي وسط شبه الجزيرة وشرقيا وغربيا وجنوبها. أما الشمال فإننا لم نعثر على أيّ ترجمة لأيّ بلوي من شمال شبه الجزيرة، وذلك في المصادر التي اتخذناها مقياسا لتحركاتهم وتنقلاتهم.

وقد كان جل البلويين القاطنين بالأندلس ينتمون إلى بيوتات عريقة في المجد والسيادة والشرف، ممّا مكّنهم من تولّي مناصب مهمة في الدول التي كانوا يعاصرونها وخلال فترات زمنية متعددة ومتنوّعة، غير أن المناصب التي كانوا يتقلّدونها غالبا بناء على الجدول السابق هي منصب القضاء، مما يدل على أن الرصيد الثقافي الذي كان لدى أغلبهم هو الشريعة الإسلامية، والفقه، والأحكام، والعلوم الدينية. ولعل اهتمام أغلب البلويين بالفقه المالكي وتبحرهم فيه هو الذي ساعدهم على تولّي مثل تلك المناصب، خاصة إذا علمنا أن الأندلس ظلت فترة وجيزة على مذهب الإمام الأوزاعي ثم تحولت إلى مذهب الإمام مالك الذي مكث خلال حقبة طويلة هو المذهب الرسمي للدولة في الأندلس.

غير أنّ البلويين لم يكونوا فقهاء فحسب، بل كان من بينهم الطبيب والمقرئ والأديب والشاعر والعروضي. ويبدو أنّ الصفة الثانية التي كانت تغلب على البلويين بعد الفقه هي الأدب والشعر، فقد وجدنا في تراجم بعضهم أنه كان يتعاطى لقرض الشعر ويميل فيه إلى التوليد [1] بمعنى أنه كان من أنصار مدرسة التجديد، كما أن البعض الآخر، على العكس من ذلك يميل إلى الشعر المطبوع [2] غير المتكلّف، ولكنه كان يميل في شعره إلى الوسط فلا هو بالجيد ولا هو بالضعيف. وإذا انتقلنا من الجانب الأسري والثقافي إلى الجانب الأخلاقي والاجتماعي، فإننا نجد أن البلويين في عمومهم كانوا يتمتعون بخصال حميدة كالزهد والورع والفضل والبر وحسن السيرة [3]. مما دفع بالكثير من مؤلفي الطبقات وكتب التراجم إلى الثناء عليهم وإبراز هذا الجانب من شخصيتهم.

---

(1) الإحاطة في أخبار غرناطة. ج 2 / 382.

(2) نفسه . 3 / 218.

(3) أنباء مالقة. (مخطوط) لابن عسكر. ص 122.

* مصادر ترجمة البلوي :

لم يكن البلوي مشهورا في عصره شهرة بالغة كما أنه لم يكن مغمورا [1] بل عرف من قبل المعاصرين وشهدوا له بالتبريز والفطنة والذكاء، وسرعة البديهة والقدرة الفائقة على نظم الشعر وتدبيج الرسائل. غير أن ترجمته وتفاصيل حياته ظلت محصورة لدى فئة قليلة من معاصريه بحيث لم نجد له ذكرا في كتب الطبقات والتراجم المتأخرة. ولعل مرد ذلك أن كتابه في «فنّ الترسّل» لم يذع بين الناس ولم يستفد منه أحد من الذين اهتموا بتراجم الرجال وإنتاجهم فظل محدود التأثير قليل الانتشار. ولعل السبب نفسه هو الذي جعل كثيرا من المعاصرين من مستشرقين وعرب لا يولون الرجل أهميّة بل إنّ كثيرا منهم لم يذكروه ضمن مثقّفي العصر الموحدي الذين كان لهم تأثير جلي واضح في النهضة الأدبية والفكرية. وهكذا أهمله ليفي بروفنصال وهويثي ميراندة، وإحسان عباس، وحكمت علي الأوسي، ومحمد عبد الله عنان وغيرهم من كبار الباحثين الذين لهم إسهام وافر ودراسات قيمة عن عصر الموحدين وفي جوانب متعددة من الحقول المعرفية التي كان يزخر بها هذا العصر.

ولكننا بالرغم من هذا الإهمال الذي لقيه البلوي خلال حياته وبعد مماته، سنحاول أن نذكر بإيجاز المصادر التي ترجمت له سواء تعلّق الأمر بالأصول القديمة أو الدراسات الحديثة والمعاصرة معتمدين في ذلك على الترتيب الكرنولوجي (أي الزمني)

* المصادر القديمة :

ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة [2].

لعل الترجمة الوحيدة التي عرّفت بالبلوي وألقت الأضواء الكاشفة على بعض مراحل حياته وتكوينه الثقافي هي تلك التي احتفظ لنا بها صاحب الذيل والتكملة [3].

(1) إدريس العلوي البلغيثي : فن الترسل في عصر الموحدين ص 318 وما بعدها.

(2) حول ابن عبد الملك. انظر : مقدمة محمد بن شريفة جزء 8 من الذيل والتكملة.

(3) الذيل والتكملة 1 / 2 ص 453.

والسبب في ذلك عائد إلى كون ابن عبد الملك يعتبر من تلامذة البلوي الأوفياء ومن المقربين لديه والعاطفين عليه، بل يمكن اعتباره من أصدقائه على الرغم من فارق السن بينهما. لقد أفرد ابن عبد الملك ترجمة مطولة لشيخه ذكر فيها نسبه وشيوخه الذين درس عليهم في الأندلس، وكذلك شيوخه الذين أجازوه من المشارقة والأندلس كما ذكر بعض تلامذته الذين أخذوا عنه بالأندلس والمغرب. وقد عبر ابن عبد الملك في هذه الترجمة عن انطباعه الشخصي حول نفسية البلوي التي قال عنها : إنها كانت تتميز بالرقة والرهافة وسرعة الدمعة، كما ذكر مهنته التي كان يمتهنها بمراكش وهي «عقد الشروط». وقد تحدث المؤلف أيضا عن ارتباط البلوي ببعض ولاة الموحّدين بالأندلس، وتقلده لمنصب الكتابة لكثير منهم، كما ذكر مؤلفاته وإنتاجاته الفكرية سواء تلك التي أتمّها في حياته أو التي توفي قبل إتمامها، كما تحدث عن شعره وسرعة بديهته فيه مستشهدا بقصيدته التي أنشدها بين يدي «المعتضد بالله الملقب بالسعيد» [1] الذي تولى الحكم بعد وفاة أخيه الرشيد. وهي من القصائد الغُر المتميزة بالجودة والإتقان. وفي ختام الترجمة أبرز ابن عبد الملك الحرمان الذي أصاب شيخه في أواخر حياته وكيف تنكّر له بعض تلامذته ومنهم أبو الحسن الرعيني [2] بالرغم من أنه كان بلديّه، وقد انتفع به كثيرا في طريقته التي اشتهر بها وهي الكتابة عن السلطان.

ابن سعيد المغربي : اختصار القدح المعلى : [3]

لم يترجم ابن سعيد لصديقه البلوي في كتاب المغرب في حُلى المغرب، كما أنه لم يذكره في «الغصون اليانعة» ولا في «رايات المبرزين» غير أنّه أفرد له ترجمة في اختصار القدح [4]. ويمكن اعتبار هذه الترجمة بعد ترجمة ابن عبد الملك أوفى ترجمة وصلتنا عن الرجل وعن ظروف حياته. ويذكر ابن سعيد في غضون هذه الترجمة

(1) البيان المغرب. 359. ط. ميرندا.

(2) برنامج شيوخ الرعيني : المقدمة.

(3) محسن حامد العياري : ابن سعيد حياته وتراثه الفكري والأدبي.

(4) اختصار القدح المعلّى : ص 120.

نسب البلوي مختصرا كما يتحدث عن شهرته في صناعة الكتابة وعن منصبه الذي تولاه في إشبيلية لبعض سادة بني عبد المؤمن، كما أن المؤلف تحدث عن الشؤم الذي أصاب البلوي في أواخر حياته، مشيرا إلى بعض مؤلفاته وخاصة كتابه الذي صنفه في رسائل كتّاب عصره (1). ثم تحدث ابن سعيد عن شاعرية البلوي الفذة مشيرا إلى قصيدته التي أنشأها بحضرة أبي العلاء إدريس (2)، حينما وصله الخبر بقتل البياسي(3) الذي كان قد أضرم في الأندلس نار الفتنة، كما أورد ابن سعيد ضمن ترجمة البلوي جملة من أشعاره الذاتية، وأشاد بطول نفسه وقدرته على الإبداع وممارسة الشعر، كما اختار له فصولا من رسائله في الشكوى والتي عبر البلوي من خلالها عن حالته النفسية والاجتماعية (4).

• المصادر الحديثة :

الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام

لقد خصص ابن إبراهيم كتابه للأعلام الوافدين على مراكش من غير المغاربة، كما أنه ترجم فيه لمجموعة من الشخصيات المراكشية، وبما أن البلوي كان على شرط كتابه فقد أفرد له ترجمة مطولة نقلها بالحرف دون زيادة أو نقصان عن كتاب «الذيل والتكملة»، غير أنه أفصح عن مصدره الذي أخذ عنه في مقدمة الترجمة. وكنا نعتقد أنه سيضيف جديدا في ترجمته للبلوي غير أنه لم يضف أيّ جديد، كما كنا نرجح أننا سنجد ترميما للخروم التي وقعت في ترجمة البلوي في «الذيل والتكملة» المطبوع ولكن شيئا من ذلك لم يحدث مما يدلّ على أن المؤلف اعتمد على نفس نسخة الذيل (قسم الأحمدين) الذي حققه الدكتور محمد ابن شريفة.

---

(1) لقد وهم ابن سعيد في ذلك، حيث ذكر أن الكتاب يحتوي على رسائل الكتاب المعاصرين للبلوي والحقيقة أنه يضم رسائل لغيرهم.

(2) الحلل الموشية. ص 163.

(3) البيان المغرب. قسم الموحدين. ط. ميرندا ص 252.

(4) الذيل والتكملة 8 / 1 ص 10 - 11.

* الدراسات المعاصرة :

لقد أشرت في بداية الحديث عن مصادر ترجمة البلوي إلى أن الباحثين المعاصرين الذين كتبوا دراسات قيمة عن الموحّدين في جوانب متعددة من الحقول المعرفية لم يهتموا بالبلوي اهتمامهم بغيره من الشخصيات الموحدية. غير أننا وجدنا بعض هؤلاء وفي أيامنا القريبة أفردوا البلوي بعنايتهم وأجروا ذكرا في بعض مؤلفاتهم ومن هؤلاء:

الدكتور محمد بن شريفة :

أثناء الترجمة القيمة التي كتبها الدكتور محمد بن شريفة عن ابن عبد الملك المراكشي في مقدمة الجزء الثامن من الذيل، تعرض للبلوي باعتباره من شيوخ ابن عبد الملك الأوائل الذين درس عليهم بمستقره وأخذ عنهم مباشرة في بلده مراكش.

وقد اعتمد المؤلف في بناء هذه الترجمة على كتاب الذيل والتكملة نفسه، فتحدث عن صلة ابن عبد الملك بشيخه وعن المعارف التي أخذها عنه مشيرا إلى مؤلفاته وعن رواية التلميذ لشعر أستاذه، وعما ابتلي به البلوي في آخر حياته من فاقة وحرمان، كما تحدث عن مؤلفه "العطاء الجزيل" مشيرا إلى وجود قسم منه بالخزانة الحسنيّة [1] ومنوّها بقدرة البلوي على فن الترسل ومشيرا إلى تأثر ابن عبد الملك بطريقته في الكتابة باعتباره كان من الملازمين له والمختصين بمصاحبته [2].

الدكتور إحسان عباس :

في مؤلف الدكتور إحسان عباس "عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقّى من رسائله» [3] إشارة مقتضبة للبلوي، ولعل القارئ يتساءل ما علاقة البلوي بعبد الحميد؟ ولكن سؤاله وتعجبّه سينجليان حينما يعلم أن الكتاب الذي ألفه إحسان عباس يرجع في أصوله -كما يقول هو نفسه – إلى البلوي [4]، ذلك أن أبا القاسم البلوي احتفظ في

(1) الذيل والتكملة 8 / 1. ص 12.

(2) نفسه.

(3) عبد الحميد بن يحيى الكاتب. ص 8.

(4) نفسه.

كتابه « العطاء الجزيل" بمجموعة من رسائل عبد الحميد النادرة التي لا توجد في مصدر آخر من المصادر الأندلسيّة أو المشرقية. وقد جمع إحسان عباس هذه الرسائل، وأضاف إليها رسائل أخرى لم ترد فيه، وقدم لها بدراسة قيمة عن عبد الحميد الكاتب مشيرا في مقدّمته إلى المصدر الذي استخرج منه هذه الرسائل الجيدة معرّفا -بإيجاز- بالكتاب وصاحبه [1].

وقد اعتمد إحسان عباس في صفحاته القليلة التي كتبها عن البلوي على الترجمتين الواردتين في كل من الذيل واختصار القدح.

عبد الوهاب بن منصور :

جمع الأستاذ عبد الوهاب بن منصور كتابا عرف فيه بأعلام المغرب العربي، وقد خص البلوي في القسم الرابع بترجمة وافية [2] ومزج المؤلف في هذه الترجمة بين ما ورد في الذيل وما ورد في اختصار القدح. وقد نقل من المصدرين المذكورين جملة من أخبار الرجل وأشعاره وقدرا صالحا من نثره.

إدريس العلوي البلغيثي :

في رسالة جامعية كتبها إدريس العلوي عن فن الرسائل في العصر الموحدي [3] أفرد الباحث للبلوي ترجمة تعتبر -في نظري- أوفى ما كتبه المعاصرون عن شخصيته وتراثه الفكري والأدبي. وقد استفاد الباحث في بناء ترجمة الرجل من المصدرين الأساسيين "الذيل والتكملة" و"اختصار القدح المعلّى" كما استفاد في جزء يسير منها من كتاب "العطاء الجزيل" وقد تعرّض الباحث في هذه الترجمة لأسرة البلوي ونسبه وبعض شيوخه مع الحديث عن ثقافته والتنويه بمكانته الفذّة وبموهبته الفنيّة الرفيعة كما أنه انتقى من المصدرين المذكورين طائفة صالحة من شعره وفصولا

(1) عبد الحميد الكاتب. ص 10 - 15.

(2) أعلام المغرب العربي. ج 4 / 146.

(3) فن الترسل في عصر الموحدين. 168.

من رسائله القصيرة [1]، محللا بعضها تحليلا جزئيا تعرض فيه لبعض المعاني التي تنطوي عليها تلك الرسائل مبرزا قيمتها الفنية والتاريخية، ومنوها بأسلوب البلوي وقدرته على الكتابة [2].

ومما تجدر الإشارة إليه أن البلوي قد ذكر عرضا في بعض المصادر والمراجع، فهو مذكور في نفح الطيب حيث اختار له المقّري أربعة أبيات في شكوى الزمان وأهله. كماورد ذكره في «ملء العيبة» أثناء حديث ابن رشيد عن سند لأحد الشيوخ. كما أشار إليه أستاذنا وشيخنا الكبير محمد المنوني في المصادر العربية لتاريخ المغرب معرفا بنسخة الكتاب ومنوّها بقيمته الأدبية والتاريخية. كما وردت الإشارة إليه في رسالة الدكتور عبد الله العمراني أثناء حديثه عن البلويين بالأندلس. ولم يذكره من المستشرقين سوى أستاذتنا الجليلة ماريا خيسوس فيقيرا في بحثها القيم عن مصادر تاريخ الموحدين.

نستفيد من كل ما سبق أن الترجمتين الأصليتين اللتين احتفظ لنا بهما الزمان هما الواردتان : في : «الذيل والتكملة» «واختصار القدح المعلّى» وأن الدارسين المحدثين والباحثين المعاصرين قد اعتمدوا جزئيا أو كليًا على هذين المصدرين ولم يلتفت أحد من هؤلاء إلى قيمة كتاب «العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل» في بناء ترجمة البلوي، فهو يحتوي على معلومات هامة تفيد الباحث في إبراز شخصية الرجل وأخلاقه، كما أنّ الكتاب يكشف عن علاقات البلوي بمعاصريه من الطبقة العليا كالولاة والقواد والأمراء والكتّاب أو من الطبقة الدنيا من عامة الشعب. كما أنه يحتوي على نماذج هامة من رسائله وأشعاره التي يستطيع الباحث من خلالها أن يقوّم قدرات البلوي الفنية من خلالها، ويضعه في منزلته التي كان يحتلها بين كتّاب عصره.

---

(1) إدريس العلوي البلغيتي. فن الترسل في عصر الموحدين. ص 321.

(2) نفسه، ص 323.

* **المؤثرات العامة في حياته :**

1) في الأندلس :

البلوي : ذكر نسبه ابن عبد الملك فقال : هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمان بن محمدبن عبد الله بن علي القضاعي الإشبيلي، كان سلفه القدامى يسكنون قرطبة، ثم نزحوا إلى إشبيلية ولاندري متى كان هذا النزوح. كما أننا لا نملك أخبارا عن أسبابه ودوافعه، غير أن مترجميه ذكروا أنهم كانو يعرفون في قرطبة ببني علي، نسبة إلى جدهم الأول (1).

وليست بين أيدينا أخبار عن أسرته الكبيرة أو الصغيرة، فقد سكتت المصادر عن ذكر والده كما أنه لم يشر إليه في كتابه، مما يدل على أنه لم يكن من مثقفي عصره ويزيد ذلك أن توجيه البلوي نحو الفكر والثقافة لم يكن من قبل أبيه بل كان بمبادرة من أخيه الأكبر (2). وقد كان أخوه هذا من كبار عاقدي الشروط بإشبيلية ومن صدور العدول المبرزين بها، ومن أثبت الناس على شهادة وإن طال أمرها (3)، كامل المعرفة بالفقه والفرائض والمواريث والحساب والعروض (4). أخذ البلوي كل هذه العلوم عن أخيه فأصبح مبرزا فيها مثله، كما أخذ بعض المعارف والعلوم عن خاله أبي العباس أحمد بن عمر القرمادي (5) مما يدل على أن والدة المؤلف كانت من أسرة آل القرمادي وهي من الأسر المشهورة في إشبيلية.

وكما أننا لا نملك معلومات كافية عن أسرته الكبيرة، فإننا أيضا لا نتوفر على أخبار ومعلومات ضافية عن أسرته الصغيرة وليس هناك سوى إشارات طفيفة وغامضة أحيانا عن أحوال أسرته، فقد ذكر هو نفسه في سياق رسالة له أن ربة الدار

(1) الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام. ج 2 / ص 180.

(2) الذيل والتكملة 5 / 1 ص 309.

(3) نفسه.

(4) نفسه.

(5) الذيل والتكملة 1 / 1 ص 348.

قد جارت عليه في أقوالها وافعالها [1] وأنه حزن لهذا الجور حتى غدا لا يهنأ له عيش ولا يطمئن له بال، فساء حاله ظاهرا وباطنا ولا ندري ما يقصده البلوي من هذا الجور غير أننا نستنتج منه أنه لم يكن هنّي البال مع أسرته خاصة إذا علمنا أنه يشكو في رسالة أخرى من مقاطعة الأهل له، وأنه كان يكاتبهم من بلاد الغربة (أي من صحراء المغرب) فلا يردون عليه جوابا [2].

وإذا تجاوزنا حياة البلوي الأسرية فإننا نجده قد عاش حياة اجتماعية مليئة بالأحداث والتقلبات وأنه قضى مراحل حياته كليا مترددا بين الأندلس والمغرب، وذلك تبعا لارتباطه السياسي وتوجهه الإديولوجي.

أما بالأندلس فإننا وجدنا صدى أخباره في المدن التالية :



لقد كانت مدينة إشبيلية المقر الأساسي لصاحبنا ففيها قضى طفولته وشبابه، ويبدو أنه كان في مراحل حياته الأولى نشيطا مرحا، حيث كوّن صداقات متعددة مع أبناء بلده وغيرهم، فكان يخرج معهم لمنتزهات على الوادي الكبير فيتناشدون الشعر ويتسامرون بألوان من النثر [3]. وفي المدينة نفسها اتصال بمجموعة من الوافدين عليها وكان من بين هؤلاء شيخه وصديقه ابن عياش [4] كاتب الخلافة الموحدية في أيام المنصور والناصر والمستنصر الذي كان يشار إليه بالبنان لبراعته وفصاحته. ويبدو أنّ البلوي كان قد تدرب على يد ابن عياش في صنعة الكتابة وفن الترسل. كما أنه ارتبط بواسطته بالبلاط الموحدي وخاصة الولاة الذين ترددوا على إشبيلية حيث

---

(1) اختصار القدح ص 120.

(2) العطاء الجزيل.

(3) العطاء الجزيل.

(4) الذيل والتكملة. ج6 / 384.

تولى مهمة الكتابة في زمن شبيبته لمجموعة من هؤلاء كأبي زيد بن عبد المؤمن وأبي موسى المعروف بالعادل، وأبي عمران بن أبي موسى وأبي إسحاق بن أبي يعقوب وأبي إسحاق بن أبي يوسف المعروف بالأحول [1]. وبالرغم من أنه كتب لهؤلاء جميعا فإن الأخبار التي لدينا تدل على أنه ارتبط بهذا الأخير ارتباطا وثيقا حيث مكث كاتبا له مدة ثمانية عشر شهرا أي منذ دخوله لإشبيلية أواخر سنة 610 إلى حين وفاته سنة 612. وقد تأثر البلوي لوفاة صديقه أبي إسحاق بالغ التأثر، فرثاه بقصائد فريدة وكتب في تعزيته رسائل نادرة [2].

ويبدو أن إشبيلية عرفت تنصيب عدد من الولاة الموحدين الذين كانوا لا يعرفون الاستقرار الدائم بهذه المدينة، ولا شك أن هؤلاء الولاة كانوا يوصون بالبلوي خيرا ومن ثم أصبح من المقربين لديهم، ولو لم يكن قد تقلد لديهم منصب الكتابة، وهكذا وجدناه بين المدعوين لحضور حفل التهنئة الذي أقامه أبو العلاء إدريس بالقرب من الوادي الكبير بعد وصول البشارة بقتل البياسي [3]. وقد كان البلوي من بين الشعراء الذين أنشدوا قصائدهم في هذا الحفل وقد نالت قصيدته إحسان الوالي كما استحسنها العامة والخاصة وأصبح الإشبيليون يلهجون بها ويحفظونها عن ظهر قلب.

ويظهر لي أن أحد هؤلاء الولاة بعد أن خبر سيرة البلوي وعرف أخلاقه وحسن معاملته وثباته على الحق والعدل عيّنه قاضيا بمدينتي مربلة واسطبونة، يستفاد ذلك من رسالة بعثها له أبو الحكم بن عذرة جوابا على رسالة تعزية كان قد خاطبه بها وهو مقيم بهاتين المدينتين [4]. ولا شك أنّ البلوي كان قد سلك في خطّته هذه مسلكا حسنا مما دفع الناس إلى تقريظه والثناء عليه، معبرين عن شكرهم لسلوكه وذكائه وفطنته

(1) أعلام المغرب العربي 4/146.

(2) العطاء الجزيل.

(3) البيان المغرب : 272 - 273.

(4) العطاء الجزيل .

وامتلاكه لزمام المعاني. وقد كان من بين المادحين له أبو الحكم بن عذرة الذي قال في حقّه :

وَأَسْلَمْ وَدُمْ يَا أَيُّهَا القَاضِي الرِّضَى   فِي خُطَّةٍ تَقْضِي لَكُمْ بِبَقَائِهَا

مَا لاَحَ نَجْمٌ أَوْ تَرَنَّمَ طَائِرٌ   أَوْ حَنَّ ذُو جَفْنٍ إِلَى إِغْفَائِهَا [1]

غير أنّ البلوي لم يرض بهذا المنصب الذي أسند له ولم يرد أن يمكث فيه لسبب من الأسباب التي نجهلها وطلب إعفاءه ثم عاد إلى مدينة إشبيلية.

بعد عودة البلوي إلى إشبيلية استدعاه أبو زيد عبد الرحمان الموحدي ليكون كاتبه الخاص، فلبّى طلبه وانتقل إلى مدينة جيان حيث ظل هناك من سنة 607 إلى سنة 610. وفي هذه الأثناء صدرت عن البلوي رسائل رسمية وصلتنا منها رسالة واحدة كتبها عن والي جيان أبي زيد المذكور إلى ملك قشتالة وطليطلة وغشكونية يذكّره فيها بالعهود المبرمة بينه وبين الموحدين [2]. ويبدو أن إقامة البلوي بجيان لم تدم طويلا بسبب الصراع الذي كان قائما بين المسيحيين والمسلمين المجاورين لهم، وبسبب المناوشات الدائمة التي كانت تدور بين الطرفين، ففضّل الانتقال مرة أخرى إلى مدينة إشبيلية ومنها إلى مراكش.

2) البلوي في المغرب :

لم يكن البلوي دائم الاستقرار بالأندلس، بل كان يتنقل بينها وبين المغرب محاولا أن يتقلّد منصب الكتابة لدى أحد الخلفاء الموحدين الذين كانوا يقربون الكتّاب الأندلسيين لبلاطاتهم ويعتنون بهم أشد الاعتناء، غير أنّ البلوي لم يفلح في ذلك إذ لم نعثر في كتب الطبقات التي ترجمت له على خبر يشيد أنه تقلّد منصب الكتابة لخليفة من الخلفاء بالرغم من أنه عاصر مجموعة كبيرة منهم، وشاهد أحداث الدولة الموحدية وتقلباتها السياسية منذ نعومة أظفاره إلى حين وفاته.

(1) نفسه.

(2) نفسه.

وعلى الرغم من أن البلوي لم يجد في المغرب ما يلبي طموحاته ورغباته فقد تردد عليه مرات متعددة وخلال فترات مختلفة. ويبدو أن أول زيارة له للمغرب كانت في أيام الناصر أبي عبد الله بن المنصور [1]. حيث دخل مراكش واتصل فيها بشيخه أبي عبد الله بن عياش الذي كان قد تعرّف عليه من قبل في مدينة إشبيلية [2]. وخلال هذه المدّة التي أقامها في كنف أستاذه وصديقه المذكور عرض له مرض شديد كاد يودي بحياته لولا احتفاء ابن عياش به وإحضاره لمهارة الأطباء للنظر في علاجه وتدبير علّته [3]. ويبدو أن البلوي خلال إقامته الأولى بمراكش كان يتصل بالوافدين الأندلسيين على هذه المدينة خاصة أولئك الذين كانوا يردون من إشبيلية، يجالسهم ويسألهم عن حالهم ويشفع لهم في أمورهم ويتوسّط لهم في سبيل قضاء مآربهم.

بعد رحلة البلوي الأولى إلى مراكش عاد إلى إشبيلية موطنه الأصلي ولاندري متى كانت عودته، غير أن ابن عبد الملك يشير إلى ذلك قائلا : «وقدم مراكش في أيام الناصر وانقطع إلى ابن عياش واختص به فكان في كنفه إلى أن فصل عن مراكش إلى الأندلس» [4].

ويعود البلوي مرة أخرى إلى مراكش ضمن وفد إشبيلية الذي قدم لمبايعة الخليفة المعتضد بالله الملقب بالسعيد [5] وقد تمت بيعته سنة 650 هـ ممّا يفيد أن البلوي كان قد دخل مراكش في هذه السنة. ولعل ورود البلوي ضمن هذا الوفد له دلالة خاصة حيث نستفيد منه أن الرجل كان صاحب مركز اجتماعي هام، وأنه كان من وجهاء قومه وخاصتهم حيث لا يقع الاختيار في مثل هذه المناسبات إلا على من توفرت فيه مثل تلك الصفات ؛ ويدلنا أيضا على أن البلوي كان من بين الشعراء الذين وقع عليهم

---

(1) الإعلام : ج 2/ 180.

(2) الذيل والتكملة : 6/ 385.

(3) نفسه. 6/ 385.

(4) الذيل والتكملة. 6/ 358.

(5) الذيل والتكملة : 1/ 2. ص 457.

الاختيار لإنشاد الشعر بين يدي الخليفة، وكان لا ينشد الشعر في هذه المناسبات إلا من شهد له ببراعة النظم وجودة القريحة، وقد كان البلوي يمتاز بالصفتين معا. ويذكر تلميذه ابن عبد الملك أنه أنشد الخليفة أثناء حفل تصبيه قصيدة بديعة نالت إعجاب الحاضرين، ثم أتبعها بخطبة رائعة أظهر فيها البلوي قدرته على الارتجال وتفوقه في مجالي النثر والشعر.

ويستفاد من أخباره أنه مكث بمدينة مراكش خلال هذه المرحلة غير أن الأيام لم تساعده على بلوغ أمله إذ أدركته فاقة شديدة «اضطر من أجلها إلى الانتقال إلى حاحة من أعمال مراكش وبَواديها القريبة لتعليم العربية لبعض بني أحد رؤساء البربر» [1]. وبعد سبعة أشهر من القلق والغربة عاد البلوي إلى مراكش، وبيده نزر يسير من المال الذي كان قد أسداه إليه ذلك الرئيس البربري، أقام به أَوَدَهُ على تقتير مدة قصيرة، ثم عاد إلى حالة الفقر الأولى وظل يرتزق مما يعود عليه من عقد الشروط.

ولما ورد على مراكش سنة 655 الواعظ محمد بن أبي بكر بن رشيد البغدادي تعرف على البلوي وتحقق من فضله وعلمه وأدرك ما آل إليه أمره من سوء حال، فصيره في كفالته وأجرى له جراية أقام بها أوده «وكان ذلك من أقبح ما جرت به الأقدار من موجبات النقد على صنفه وجيرانه من المنتمين إلى العلوم والمرتسمين به وغيرهم من رؤساء حضرة مراكش» [2]، فقد كان البلوي الجار القريب لأبي الحسن الرعيني وكان تلميذه وبلديّه وبطريقته في الكتابة انتفع حتى غدا الكاتب الرسمي لجملة من الخلفاء الموحدين ومع ذلك لم تجر له على يده منفعة ولا نال من قبله فائدة [3].

---

(1) الإعلام ج 2 ص 182. أعلام المغرب ج 4 / 147.

(2) الإعلام ج 2 / 182.

(3) الذيل والتكملة 1 / 2. 59.

وهكذا ظل البلوي يعيش في أخريات أيامه قلقا يعاني من شظف العيش وسوء الحال وعقوق الخلان والأصحاب إلى أن وفاه الأجل المحتوم مغرّبا عن وطنه الأصلي سنة 657 هـ.

• **شيوخه وتلامذته :**

لم يترك لنا البلوي فهرسة للشيوخ الذين درس عليهم أو أجازوه إجازة عامة أو خاصة، كما أنّ أخبار طفولته ومرحلة صباه قليلة شحيحة حيث لم تذكر المصادر التي ترجمت له شيئا عن تلك المرحلة، غير أننا باستقراء كتب الطبقات والتراجم تمكنا من ضبط بعض الشيوخ الذين تلقى عنهم العلوم أو أجازوه سواء من المشارقة أو الأندلسيين. ويبدوأن البلوي كان قد وجد في أحد أفراد عائلته من يوجهه نحو الدرس والتحصيل، ونعني بذلك أخاه الأكبر أبا الحسن علي [1] ؛ الذي أخبرنا البلوي أنه أدخل عليه أبا القاسم ابن بشكوال وهو بعد في المهد ابن أربعين يوما واستجازه له فكتب له إجازة وضعها بيده على صدره ودعا له بخير [2].

ويدلنا هذا الخبر على أن أول شيخ أجاز البلوي إجازة مجردة هو أبو القاسم ابن بشكوال صاحب كتاب "الصلة". كما يدلنا أيضا على أن البلوي يعدّ آخر من روى عنه بهذا النوع من الإجازة [3].

وحينما كبر البلوي وجد التوفيق مفتّح الأبواب في شتى العلوم من عروض وحساب وفرائض وهندسة وحديث وأدب وقراءة ومهارة في عقد الشروط وقدرة على نظم الشعر وكتابة الرسائل. ولم يكن التوفيق ليحالفه لولا نبوغه وذكاؤه ولولا جلوسه إلى شيوخ كبار وحضوره لحلقات الدرس التي كانت تعقد بإشبيلية من قبل هؤلاء الشيوخ الذين كانت تزخر المدينة بهم في هذا العصر.

---

(1) الذيل والتكملة 5 / 1ص 310. صلة الصلة ص 130. التكملة : ترجمة رقم 1896. برنامج شيوخ الرعيني ص 112.

(2) الذيل والتكملة 1 / 2، ص 454.

(3) سير أعلام النبلاء ج 21، ص 141.

ويبدو أن البلوي كان حريصا على العلم لا يأنف أن يستفيده من الصغير والكبير، يقيّد منه ما شاء أن يقيد ويحفظ منه ما شاء أن يحفظ. ولذلك تنوعت ثقافته وتعددت معارفه بتنوع الشيوخ الذين درس عليهم وبتعددهم. ومن هؤلاء الشيوخ :

1- أبو العباس أحمد بن مضاء القرطبي الذي كان بارعا في فن التصريف من العربية عالما بالنحو كاتبا بليغا شاعرا مجيدا متحققا من العلوم العقلية والنقلية، كما كان طيب النفس كريم الأخلاق حسن اللقاء جميل العشرة كامل المروءة. أخذ عنه جملة من الطلبة بالأندلس والمغرب ودرس عليه أبناء عبد المؤمن بن علي مدة وانتفعوا بعلمه وفضله. درس البلوي على شيخه هذا تصانيفه، ومن بينها كتابه "المشرق" [1] الذي أجاز له روايته كما أجاز له رواية بعض أشعاره.

2- أبو العباس أحمد بن عمر بن أحمد بن عبد الملك اللخمي القرمادي [2] وهو خال البلوي، ذكر ابن عبد الملك أن له رحلة إلى المشرق حج فيها وسمع بالإسكندرية عن السلفي.

3- أبو عبد الله بن عياش [3] وهو من كتّاب الدولة الموحدية المرموقين، روى عن الإمام السهيلي وابن حبيش، وكان يتصرف في الكتابة تصرفا بارعا ويحفظ جملة وافرة من الأشعار، وقد اتصل به البلوي بمدينة إشبيلية ثم بمدينة مراكش وكانت بينهما علاقة متينة وطيدة وقد انتفع البلوي بطريقته في الكتابة.

4- أحمد بن محمد بن مقدام الرعيني [4] الإشبيلي كان شيخا مقرئا عارفا بتجويد القرآن حافظا لأحديث راوية لها، متصفا بالعدل والنزاهة فيما ينقله أو يرويه، حافظا للآداب يستظهر شعر (سقط الزند) لأبي العلاء المعري، متصفا بالزهد والفضل. وكان البلوي يجلّه ويقدّره، وقد روى عنه وحدث تلامذته بأخباره.

---

(1) (المشرق) هو الكتب الذي طبعه شوقي ضيف باسم الرد على النّحاة

(2) الذيل والتكملة 1 / 1. ص 348.

(3) التكملة : ج 2 : ص 605. الذيل والتكملة 6 / 384.

(4) الذيل والتكملة 1 / 1 / 384. التكملة 1 / 97. جذوة الاقتباس 1 / 72.

5- محمد بن سعيد بن زرقون الإشبيلي [1] : كان محدثا ثقة فيما يرويه عالما بأصول الفقه وأحكام القضاء ماهرا في عقد الشروط والوثائق، دارسا للآداب كاتبا مجيدا شاعرا محسنا، حسن المشاركة في الطب قضى عمره في تدريس الحديث وإسماعه، كما أنفق وقتا طويلا في تعليم الأدب. وكان يجمع بين الثقافة المتنوعة وبين دماثة الخلق، وحسن التودد إلى الناس، وخاصة طلبته الذين كانوا يتلقون عنه العلم.

6- يوسف بن أحمد بن عياد التميمي [2] اشتهر بمشاركته في أصول الفقه وتدريسه لكتاب "التنقيحات" للسهروردي ؛ وكان شغوفا بالأدب كاتبا مجيدا، له حظ من قرض الشعر وبصر بالفلسفة، كما كان يتمذهب بالمذهب الشيعي ويجاهر بالمغالاة فيه. دخل إشبيلية ثم انفصل عنها إلى مراكش صحبة أبي عمران بن أبي موسى بن عبد المؤمن.

7- عبد الله بن أحمد بن جمهور [3] القيسي الإشبيلي، كان سلفه من جند الشام النازلين بشرف إشبيلية. روى عن ابن حبيش، وابن فرقد، وابن ملكون، وابن العربي، وابن الجد ؛ كما أخذ عن أبي الحسين بن عظيمة. واشتهر بمعرفته باللغة وبعقد الشروط، كما كان له حظ من علم الأنساب والتاريخ ؛ وكان إلى جانب ذلك متميزا بصلاحه وفضله ودماثة خلقه درس عليه ابنلوي واشترك معه في الأخذ عن بعض الشيوخ.

8- أبو جعفر أحمد بن محمد بن يحيى بن عبد الله الأنصاري [4] روى عن أبي سليمان بن حوط الله. وكان من الفقهاء المتصفين بالحفظ، العاقدين للشروط المبرزين في معرفتها الضابطين لأحكامها.

---

(1) الذيل والتكملة. 6 / 203. التكملة 2 / 540. الديباج المذهب 2 / 259. تذكرة الحفاظ رقم 1360.

(2) الذيل والتكملة : 8 / 1. ص426.

(3) التكملة 2 / 872. الذيل والتكملة 4 / 174.

(4) الذيل والتكملة : 1 / 1. ص 527.

وقد ذكر ابن عبد الملك إلى جانب هؤلاء جملة من الشيوخ الذين أخذ عنهم البلوي كأبي الحسين بن عظيمة الذي قرأ عليه البلوي القرآن بالقراءات السبع، وأبي إسحاق ابن الشرفي وأبي الحجاج بن الحسين بن عمر. كما ذكر جملة من الشيوخ الذين أجازوه ومن بينهم عبد الرحمان بن محمد الشرّاط من الأندلسيين، وأبو الطاهر الخشوعي من المشارقة[1].

ومما تجدر الإشارة إليه أن البلوي بعد أن اكتملت شخصيته واستوى عوده وتنوعت ثقافته شارك في مجال التدريس وندب نفسه لنشر العلوم والمعارف فتلقاها عنه مجموعة من التلاميذ النجباء سواء بإشبيلية حيث أقام مدة طويلة من مرحلة حياته الأولى أو بمراكش التي مكث بها في مرحلة حياته الأخيرة.

وقد ذكر ابن عبد الملك أن كثيرا من شيوخه وجماعة من أصحابه أو من يتنزل منزلتهم [2] قد قرأوا على البلوي كثيرا من الحديث والآداب. وذكر أيضا أنه قرأ عليه -هونفسه- القرآن الكريم برواية ورش وتدرب على يديه في علم العروض، وصناعة الحساب والفرائض، وأنه أجازه إجازة عامة أكثر من مرة، وعلى هذا الأساس يكون ابن عبد الملك من تلامذة البلوي الذين لازموه، وأنه كانت له خصوصية به. ولم تكن صلته بشيخه هذا مقتصرة على حلقة درسه وإنما كان يسايره ويذاكره خارج الحلقة، ويجالسه في دكانه الذي كان يتصدى فيه لعقد الشروط. كما كان ابن عبد الملك الراوية الأول لشعر البلوي يستفاد ذلك من قوله "أنشدني كثيرا من شعره ما لا أحصيه كثرة وشاهدت من ارتجاله إياه وسرعة بديهته ما اقتضى منه العجب" [3]. ويبدو أن صحبة ابن عبد الملك لشيخه كانت حوالي سنة 650 هـ بمدينة مراكش وأنها قد استمرت إلى حين وفاة البلوي سنة 657هـ [4].

---

(1) نفسه 1 / 2. ص 454.

(2) الذيل والتكملة 1 / 2. ص 454.

(3) نفسه.

(4) د. محمد بن شريفة (مقدمة الذيل والتكملة) ج 8 / 1. ص11 - 13.

ومما تجدر الإشارة إليه أن ابن عبد الملك المراكشي يعد المصدر الأساسي في بناء ترجمة البلوي باعتباره شيخه الأثير الذي استفاد منه كثيرا من المعلومات وظفها في كتابه (الذيل والتكملة). ويستفاد مما هو مثبوث في هذا الكتاب من معلومات أنه روى كثيرا من الأخبار. كما يستفاد أيضا من خلال الأخبار التي أوردها ابن عبد الملك في كتابه عن شيخه أنه كان من تلامذته الأوفياء، ولذلك نجده رثى لحاله حينما أصابته فاقة في أخريات أيامه وأنه كان ينحى باللآئمة على بعض تلامذته الآخرين الذين لم تجر الأقدار على يدهم خيرا بالرغم من انتفاعهم به. وهو يعني بذلك أبا الحسن الرعيني[1] الذي يعد من تلامذة البلوي الأوائل الذين انتفعوا كثيرا بطريقته في الكتابة فأصبح لهم صيت ذائع وشهرة بالغة واكتسبوا جاها عريضا وقد اتصل الرعيني بالبلوي في إشبيلية ودرس عليه، وتدرب بين يديه على أساليب الكتابة حتى صار من العلماء المرتسمين فيها ؛ وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يجر له ذكرا في "برنامجه" مع أنه على شرطه. ولا ندري سبب ذلك وعلّته إلا أن يكون قد وقع بين التلميذ وشيخه ما يدعو إلى إسقاطه في كتابه.

(يتبع)

(1) مقدمة برنامج شيوخ الرعيني – الذيل والتكملة 5 / 1. ص 323.

نونيّة أبي بكر بن عمار الأندلسي

(ت 477 / 1084)

د. حياة قارة (المغرب)

كان ديوان ذي الوزارتين أبي بكر محمد بن عمار الشلبي الأندلسي "كثير الانتشار في الأندلس بعد وفاته، ولكن الظروف العصيبة التي أحاطت بموت الشاعر لا تسمح لنا بالقول بأن الشاعر قام بجمع ديوانه بنفسه قبل مصرعه، فقد أخذ أدباء آخرون على عاتقهم جمع ما تيسّر لهم الحصول عليه من شعر ابن عمّار ووضعوه في كتاب خاص. وأول من وصلت إلينا أخبارهم من هؤلاء الأدباء هو أبو القاسم محمد بن يوسف الشلبي من معاصري ابن عمار وأهل بلده. فقد كتب هذا المؤلف تاريخا مجموعا في أخبار المعتمد محمد بن عبّاد، ويبدو أنه خصّص قسما مبمّا من هذا التاريخ لابن عمار وأعماله وشعره" [1].

وبعد مضي عشرين عاما على وفاة الشاعر، اهتم أبو الحسن بن بسام (ت 1147/542) بجمع شعره وأخباره في كتاب سماه "نخبة الاختيار من شعر ذي الوزارتين أبي بكر ابن عمار" [2]، ولكنه لم يصل إلى أيدينا.

وقد جمع أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمي السرقسطي (ت 538 / 1143) ديوان شعره، ورتبه على حروف المعجم، يقول عنه ابن الأبار : "ولا شك أنه بحث عنه في مظانه، واستفرغ جهده في جمعه" [3].

(1) صلاح خالص : محمد بن عمار الأندلسي : ص 175، والحلّة السيراء : 2 / 136.

(2) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة ق 2 م 2 ص 477، والحلّة السيراء : 2 / 148.

(3) الحلّة السيراء : 2 / 132، 133 ، 134.

وحكى ابن الأبار أنه تملّك النسخة التي جمعها أبو الطاهر التميمي من شعر ابن عمار، فكان يكتب فيها ويضيف إليها ما أخلّت به من أشعار، وكانت المصدر الأساسي له في كتابة ترجمة ابن عمار (1).

وقد وصلتنا قطعة من هذه النسخة تحتفظ بها خزانة جامع القرويين بفاس، وهي مسجلة تحت رقم واحد في الكتب التي اكتشفت واستخرجت مع كثير غيرها من خروم الخزانة وأنقاضها، وتقع في أربع عشرة ورقة، مكتوبة بخط أندلسي ومرتبة على حروف الهجاء، ولكنها ممزقة ومخرّمة بسبب الحشرات والرطوبة بشكل يصعب معه قراءتها والاستفادة منها (2).

وكان قد نهد بجمع ديوانه وتحقيقه – قبل اثنين وأربعين عاما – د. صلاح خالص، ونشره تحت عنوان "محمد بن عمار الأندلسي : دراسة أدبية تاريخية لألمع شخصية سياسية في تاريخ دولة بني عباد في إشبيلية". وصدر عن مطبعة الهدى ببغداد سنة 1957، ضمن سلسلة " الحياة الأدبية في إشبيلية في القرن الخامس" رقم 3.

أما المصادر التي اعتمد عليها في جمع شعره فهي : قطعة من ديوان ابن عمار، والحلة السيراء لابن الأبار، والذخيرة لابن بسام، والمطرب لابن دحية الكلبي، ونصوص أدبية أندلسية لابن سيد الناس اليعمري، وخريدة القصر للعماد الأصبهاني والحماسة المغربية للجراوي... إلخ (3).

وأثناء تحقيقي لكتاب "كنز الكتّاب ومنتخب الآداب" لأبي إسحاق إبراهيم بن أبي الحسن علي بن أحمد بن علي الفهري الشريشي المعروف بالبونسي المتوفّى سنة 651 / 1253 (السفر الأول من النسخة الكبرى) (4) وقفت على نونية أبي بكر بن عمار

---

(1) تحفة السيراء : 2 / 165.

(2) صلاح خالص : محمد بن عمار الأندلسي : ص 176، 179، 180.

(3) تنظر مقالتنا : فائت شعر ابن عمار الشلبي (قيد النشر).

(4) تنظر مقالتنا : نبذة من شعر أبي عبد الله محمد بن غالب الرّصافي البلنسي، مجلة دراسات أندلسية، عدد 21 – جانفي 1999 – ص 23 - 24.

التي انفرد بها، وقد كتبها إلى المعتضد بن عباد عند منصرفه ظافرا من إحدى غزواته، ولعلها بمربلّة، إذ يقول :

فتحٌ فتحتَ به افتتاحك للهدى   وجعلت من مربلّةٍ عنوانا

وتقع في أربع وأربعين بيتا، ولا توجد في ديوانه المطبوع.

والقصيدة غنية بالإشارات التاريخية المتعلّقة بأسرة بني عباد، منها الحروب الطويلة التي جمعت بين زعيم البرازلة محمد بن عبد الله البرزالي والمعتضد بن عباد، انتهت بقتل زعيمهم، وتفرق أمرهم، وانضمام بقاياهم إلى باديس بن حبوس صاحب غرناطة، وإلى ذلك يشير ابن عمار إلى الصراع المستمر بين مملكة غرناطة حصن البربر في الجنوب، وبين إشبيلية، يقول :

عُرس يعود على عدوّك مأتما   ومسرّةٌ تهوي له أحزانا

غنّتْ به في دوح حِمْصَ حمائمٌ   نعبتْ على غرناطةٍ غربانا

ولعلّ القصيدة نظمها ابن عمار والمعتضد غير راض عنه، إذ نجد في ختامها يستعطفه بقوله :

بِدْدْ دجى ليلي بأقمار الندى   فلقد بقيتُ بليلها حيرانا

وامننْ بتسريحي وصكّ يقتضي   بُرئي ونصحي للزمان أمانا

وبعد، فأقدم الآن نص القصيدة كما وردت في كنز الكتاب، وأرجو أن أكون قد وفقت في تقديمها وتحقيقها، وأدعو الله أن يوفقني للمزيد من خدمة تراثنا الأندلسي، إنه سميع مجيب.

القصيدة :

قال أبو إسحاق إبراهيم البونسي : وكتب أبو بكر بن عمار إلى المعتضد [1] بن عباد عند منصرفه ظافرا من غزوة بهذا المنظوم [من الكامل] :

بُشراكَ قد كَمُلتْ لنا بُشْرانا ... وَهَناكَ ما بِكَ سَرَّنا وَهَنانا
فَتْحٌ فَتَحتَ بهِ افتتاحَكَ للهُدى ... وجعلتَ من مَرْبَلَةٍ [2] عُنْوانا
ظَلَّلْتَ مِنْ شَجَرِ العَوالي دِينَنا ... وَرَقَمْتَ مِنْ رَوْضِ النَّدى دُنْيانا
حَمَّلْتَنا تِيجانَ نُعْماكَ لِلْهُدى ... فَلْنَحْمِلَنْ مِنْ شُكْرِنا تِيجانا
أَجْنَيْتَنا ثَمَرَ المُنى من دَوحةٍ ... لم تَتَّخِذْ غَيْرَ الوَغى بُسْتانا
فَتْحا تَقلَّدَ بالسُّيوفِ جَواهِرًا ... قد فُصِّلَتْ بِدَمِ العِدى مَرْجانا
خَلَعَتْ بِهِ كَفُّ السُّرورِ عَلى المُنى ... بُرْدَ النَّجاحِ مُطَرَّزًا رِضْوانا
وسَرى نَسيمُ النَّصرِ في غُصْنِ العُلا ... فاهتَزَّ حتى خِلْتَهُ نَشْوانا
لِلّهِ حاجِبُكَ الذي جَرَّبْتَهُ ... سَيْفًا إذا نَبَتِ السُّيوفُ أَبانا
غُصْنٌ من العَلْياءِ أبدى رَوْضةً ... وطَلى وأثْمَرَ حُسْنُهُ إحْسانا
قَمَرٌ أعَدَّ من الجِيادِ لِحَرْبِهِ ... فُلْكًا ومن حَلَقِ الدُّروعِ [3] عِنانا
ماءٌ إذا عَنَتِ العُداةُ فإنْ عَنَتْ ... نارٌ تُثيرُ من العَجاجِ دُخانا
أهْدى نَسيمُ الفَتْحِ من رَوْضِ الظُّبا ... غَضًّا يُعَطِّرُ جَنْصَنا أرْدانا
وَجَلى عَروسَ المُلْكِ لم يَنْقُدْ لَها ... في المَهْرِ إلّا مُرْهَفًا وسِنانا
عُرْسٌ يَعودُ عَلى عَدوِّكَ مَأْتَمًا ... ومَسَرَّةٌ تُهْدي لهُ أحْزانا

(1) ترى هيئة التّحرير أنّ المعنيّ بهذه القصيدة هو المعتضد، لا المعتمد كما جاء في بحث الدكتورة حياة قارة. وفي القصيدة أكثر من دليل على ذلك (انظر البيت 18 و23).

(2) مربلّة Marbella : بالأندلس، بقرب مرسى سهيل ومرسى مالقة. وهي مدينة صغيرة مسوّرة من بناء الأول، وهناك جبل منيف عال يزعم أهل الناحية أن النجم المسمى سهيلا يُرى من أعلاه. وبذلك لقّب أبو القاسم الأستاذ الحافظ مؤلف الروض الأنف بالسهيلي، الروض المعطار : 534.

(3) تسمى الدروع حلقة (ابن سيدة) والحلقة اسم لجملة السلاح والدروع وما أشبهها. وقيل : الحلقة هي الدروع خاصة : لسان العرب (حلق).

غنّت بهِ في دوحِ حِمْصَ [1] حَمَائم نَعَبَتْ على غَرناطةٍ [2] غِربانا
عَجَبًا لواهي الحَبل في صنهاجةٍ ضاهى مَتِينَ الحَبل في قحطانا[3]
أسرِعْ لصَرْعتِه أبا عمرو[4] فقد قَدَّت له كفُّ الرَّدى أكفانا
[...] [5] أي جاريك العُلا طَرفا ولم تترك ظُبَاك لراحتَيه لَبانا [6]
هوِّنْ عليك فكم جُموحٍ قبله ألجمتَه هذا الحسامَ فلانا
وارتعْ وإن تَبْغِ ارتياحَك منهمُ فلقد قبضتَ نفوسَهم أثمانا
سيُنير رمحُك كوكبًا ترمي به من نَجل إسحاقَ الرّدى شيطانا
ويشبُّ سيفُك في الوَغى نارا تُقِرْ ربَّ رأسِ باديس [7] لها قُربانا
قدَرٌ من اللّه العظيمِ مُعجَّلٌ من يستطيع دِفاعَ ما قد آنا
أبْشِرْ فقد لاحَ الصباحُ لناظرٍ ورأوا لِمُلْكِك فيهمُ بُرهانا
إن كُنت من لَخم وسُدْتهم فقدْ سَادَ النبيّ محمدٌ عدنانا

---

(1) يقصد إشبيلية.

(2)غرناطة Granada ومعناها الرمانة. مدينة بالأندلس، من مدن إلبيرة، مدّنها وحصّن أسوارها وبنى قصبتها حبّوس الصنهاجي،ثم خلفه ابنه باديس بن حبوس، فكملت في أيامه، الروض المعطار: 45.

(3) يشير الشاعر في هذا البيت مع سابقه إلى الحروب الطويلة التي كانت بين المعتضد بن عبّاد وزعيم البرازلة محمد بن عبد الله البرزالي الصنهاجي، انتهت بقتل هذا الأخير، وتفرق أمر البرازلة، وانضمت بقاياهم إلى باديس بن حبوس صاحب غرناطة، وهي حرب بين البرابرة والعرب القحطانيين، وإلى ذلك يلمّح الشاعر.

(4) أبو عمرو : هو المعتضد بن عبّاد.

(5) سقط في الأصل.

(6) اللَّبان : الصدر.

(7) هو باديس بن حبوس صاحب غرناطة.

ولئن تملكت الزمان فإنما ... أعطيت حقك فيه لا عدوانا
أنت القريب من النفوس محلة ... هذا وإن عرشت في كيوانا
والله لا صححت أيمان امرئ ... حتى يصحح حبكم إيمانا
إن كنت معتقدا هواكم ملة ... فلقد تلوت بمدحكم قرآنا
كيف السبيل لشكر ما أوليتنا ... ونداك أفحم من أحد لسانا
حملتنا ثمر الأيادي مفضلا ... أشفق فقد أثقلتنا أغصانا
أمطرتنا سحب المكارم ثرة ... أمسك فقد خوفتنا الطوفانا
لا صبح أشرق من جبينك في وغى ... قد حيرت في ليلها الأجفانا
أحيان تصدر عن أعنتك الظبا ... وردا وقد أوردتها سوسانا
في مجلس أجريت فيه دماءهم ... راحا جعلت لها القنا ريحانا
يا أيها الملك الذي عبدي به ... من كان ظمآنا إلى ظمآنا
مالي يعطلني زماني بعد ما ... حليت فيه [بمدحك] (1) الأزمانا
إني تجرت ورأس مالي حبكم ... أيحل لي أن أشتكي خسرانا
بدد دجى ليلي بأقمار الندى ... فلقد بقيت بليلها حيرانا
وامنن بتسريحي وصك يقتضي ... بري ونصحي للزمان أمانا
وأقبل إليك جواد شكري مسرجا ... إن أنت أعددت الندى ميدانا
لو كان أحرارا عداتك مثلي ... لدعوت أن تستنقبهم عبدانا
لكن هوى بهم الضلال وأصبحت ... هاماتهم لسيوفكم أجفانا

---

(1) في الأصل : "بمدحي" والتصويب من الحاشية.

أعلام مالقة

تأليف ابن عسكر وابن خميس

نشر الدكتور عبد الله المرابط الترغي

دار الغرب الإسلامي بيروت (مع دار الأمان بالرباط) 1999.

د. محمّد اليعلاوي

يبدو من المقدّمة الضافية التي صدّر بها الناشر تحقيقه - الناشر في مصطلحنا هو محقّق الكتاب - أنّ «أعلام مالقة» ينسب إلى مؤلفين متقاربين بالنسب والتزامن : ابن عسكر المتوفى سنة 1238/636 وابن أخته ابن خميس (ت. تخمينا بعد سنة1244/642)، بل إلى ثلاثة حسب ملاحظة الناشر (ص17 من المقدّمة) : فالخال وابن الأخت ذيّلا بكتابهما كتابا مفقودا موسوما بـ«تاريخ أبناء مالقة» لمؤلّف سابق لهما بنحو خمسين سنة.

والأثر الباقي من كتابهما يتمثّل في نسخة من مخطوطة وحيدة مبتورة محفوظة في مكتبة خاصة بمدينة مكناس، لم يشتغل عليها الناشر مباشرة وإنما اشتغل على مصورات منها ونسخ بالرقن أو خطّ اليد وقعت إليه من ثلاثة باحثين : الفقيه محمد بوخبزة والمرحوم محمد بن تاويت التطواني والأستاذ محمد المنوني صانه الله ورعاه فاتّخذها أصولا ثانوية إلى جانب مصورّته هو التي أطلق عليها لقب «أصل أ» وإنماهذه الـ«أصول» الأربعة ترجع إلى «أصل - صفر» هو مخطوط مكناس. ولعلّ الذي حمل الدكتور الترغي على اعتبار هذه المصوّرات أصولا كونها محلاة بما صوبه منها وأضافه إليها الباحثون المذكورون كل على نسخته فوفّروا عليه كثيرا من الجهد ومن الوقت، كما يظهر من الإحالات الكثيرة التي يقول فيها مثلا : وفي أصل المنوني: سمة (ص 129، هـ 6) أو : وفي أصل بنتاويت : الأعراء (ص 225، هـ 4) معترفا هكذا بجميلهم ومبرهنا على أمانة عقليّة أصبحت اليوم نادرة الوجود.

والفصل بين نصيب الخال ونصيب ابن الأخت عسير : فالتراجم تأتي تباعا ولا يذكر مصنف الترجمة باطّراد، غاية ما هنالك أنّ بعضا منها يذيلّ بحرفي خ م (ص 117 مثلا). ويرى الناشر أنّهما يرمزان إلى ابن خميس، أو بحروف : هـ ع س (ص 127) إشارة إلى ابن عسكر (ولكن مادخل الهاء ؟)، وكذلك يفعل المؤلّفون اللاحقون الذين ينقلون عن الكتاب، فإنهم ينسبون المنقول إلى هذا أو إلى ذاك ولكن بدون مواظبة. حتى ابن خميس نفسه، عندما ترجم لخاله (رقم 50 ص 175) فقال : هو مبتدئ هذا الكتاب، فإنّه لم يبيّن حدود عمله ولا حتى ذكر «أعلام مالقة» ضمن مؤلفات المترجم.

* * * * *

الكتاب يتضمن 173 ترجمة لأعلام من مالقة عاشوا في القرن السادس والقرن السابع (39 و49 ترجمة) ممن ذكر المؤلفان أو أضاف الناشر وفياتهم، وتراجم قليلة من القرن الخامس (9) والرابع (7) ومادونهما.

والمترجمون قضاة وحفّاظ ونحاة وقرّاء، وأمراء طوائف وثوّار متمرّدون على السلطان كابن حفصون «الإسلاميّ» صاحب بوبشتر (ترجمة رقم 143 ص395) - وصفة الإسلاميّ والـ«أسلميّ» تطلق على غرار مثيلتها الـ«مسلمانيّ» في المشرق على من اعتنق الإسلام حديثا من اليهود والنصارى - ومنهم كتّاب الدواوين وحتى مؤدبو الصبيان - المؤدّب يدعى «المُكتِب» أو المُكتّب (ص 151 و161).

وكل هؤلاء نظموا الشعر قليلا أو كثيرا، فطغى النظم على النثر - والمؤلّفان يسمّيان النثر «الكتب» (ص 219 و203) - أي على الرسائل الديوانيّة والإخوانية أو العرض التاريخيّ أو تفاصيل حياة المترجم.

وهؤلاء المترجمون ينسبون إلى مالقة بالولادة أو النشأة أو الاستيطان المؤقت، حتى إن كانوا من كورة ريّة-موريّة قصبتها مالقة كما كانت غرناطة قصبة كورة إلبيرة.

* * * * *

لا يظهر أنّ هذه التراجم تتميّز عن نفسها أو عن مثيلاتها في ما سبق أو لحق من كتب الرجال والطبقات والبرامج والمشيخات، فالمؤلفان ينقلان عن السابقين، وعنهما ينقل اللاحقون، فلذلك تكثر في هوامش الناشر وفي فهرس مراجعه الإحالات إلى الخشني والحميديّ والضبيّ وابن بشكوال، ثمّ إلى ابن الأبّار وابن عبد الملك المرّاكشيّ وابن الخطيب وغيرهم. وفي هذه المبادلة فائدة كبيرة لمن لا يشتغل إلا على نسخة وحيدة، إذا هو بالمقابلة يملأ الفراغ ويصوّب الغلط ويقوّم الميزان. وهكذا قدّم لنا الدكتور الترغي نصّا مقروءا بوجه عام مضبوطا في معظمه، حقيقا أن يكون مصدرا لدارسي الشعر الأندلسي المغمور أو فن الترسّل، وقد استعان كما قلنا بما قيّده الباحثون الثلاثة في نسخهم، وكانوا قد همّوا بتحقيق الكتاب بل شرعوا في العمل فصدّهم عنه كثرة الخرم والسقوط والنقص : فنسخة مكناس تشتمل على الجزء الثاني من الكتاب، أي تراجم حروف الميم إلى الياء، مرورا بالعين والغين فالقاف ثم السين والشين فالهاء، حسب الترتيب المغربيّ لحروف الهجاء [1]، الذي ينفصل عن الألفبائيّة المتداولة في مواضع : بعد الزاي يأتي بحرفي الطاء والظاء، ويواصل بالكاف إلى النون ثم يتراجع إلى الصاد والضاد، ويعود بالعين إلى القاف ثمّ يتراجع إلى السين والشين ويختم بالهاء إلى الياء، ممّا يدلّ على أنّ تراجم إبراهيم وأحمد، والحسن والحسين، وخلف وداود، وربيع وكعب وليث قد ضاعت مع الجزء الأول.

والمألوف في التحقيق والعمل الجامعي أن يذكر الباحث الدوافع التي حملته على اختيار هذا الموضوع أو التعلّق بهذا الكتاب، والفوائد التي يرجو جنيها من عمله، وهو ما لم يذكره الدكتور الترغي، لا سيما وأنّ الثّلثين من تراجم الكتاب متواجدة في الكتب التي ذكرنا أصحابها منذ قليل، مما قد يصم الكتاب بشيء من التكرار.

(1) نشكر للصديق الأستاذ البشير العريبي إفادتنا بهذا الترتيب الخاص بالمؤدبين كما قال، وقد بحثنا عنه في القواميس والموسوعات فلم نجده فالتجأنا إليه.

ولا يعني هذا الاحتراز أنّا نستخسر مجهود الدكتور الترغي، بل بالعكس نحن نعجب لتواضعه : فقد أفادنا بنحو خمسين ترجمة انفرد بها هذا الكتاب ولم يذكرها السابق ولا اللاحق، ولكنه لم يزفّ إلينا هذا الاكتشاف في مقدمته، على إسهابه فيها. ولعمري أن هذه الإضافات الخمسين لخير مبررّ للإقدام على تحقيق الكتاب وإكمال ما بدأ فيه الشيوخ الثلاثة الأفاضل.

من المحققين من يكتفون بتقديم نص واضح للقرّاء فيقتصرون في الهوامش على ذكر اختلاف القراءات والتنبيه إلى السقط، وهي طريقة المدرسة الاستشراقيّة القديمة ولا سيّما الألمانية. ومنهم من يرفقون بالقارئ فيحاولون ملء الفراغ في المتن وتوضيح الإشارات التاريخيّة وتخريج المأثور من الكلام : القرآن والحديث، وشواهد الشعر والأمثال السائرة، والتعريف بالأشخاص والمواضع، أي كل الشروح التي نسمّيها اليوم «الحلية التقنيّة».

والدكتور الترغي آخذ بطريقتين : فهو يذكر القراءات المغايرة ويقابل بين نسخته المطعّمة بالإصلاحات والإضافات التي أشرنا إليها، وبين النقول عنها - أو إليها - في كتب الآخرين ويحيل إلى مظانّ الاختلاف، وربما أحالنا - سهوًا أو إغراء! - إلى مراجع لا يمكن الوصول إليها «لوجودها في خزانته» ويدلي بقراءته هو للكلمة المبهمة أو المطموسة ويعمّر الفراغ ويسدّ الثغرة، إلا أنه قليلا ما يبرّر اختياره، خصوصا إذا كانت القراءتان المتنافستان صالحتين كلاهما، كما وقع في ترجمة محدّث عمّر طويلا، فقرأ (ص 81) : علوّ سنّه عوضا عن علوّ سنده. وإذا كان السقط بياضا فملأ الفراغ كما في هذا الشطر المزاد (طويل) :

إلى حين أصمتني سهام قسيّه [فأوقعن بي عيبا وسبّبن لي نغلا]

(ص 187)، فإنّه لا ينسب الزيادة إلى أحد ويقول إنها مجرّد اقتراح من عنده، فلنا أن نسأل حينئذ : لماذا هذه القراءة بالذات، وما هذا العيب وماهو النغل ؟

أما القسم التوضيحيّ من التحقيق فقد أخذ فيه الناشر بنصيب وافر فعرّف غالبا بالأشخاص العارضين، مثلا عليّ بن عسكر أو خال الخال (ص 114، هـ 2) أو وجّهنا

إلى مظانّ تراجمهم (ص 195، هـ 4 : الأستاذ أبو عليّ الرندي) وشرح المفردات الصعبة (ص 110، هـ 1 : التخّ : معناه اختلط عليه أمره)، ولكنّه يشرح بقلّة فتبقى كلمات كثيرة غامضة مبهمة بل مستعصية على المعاجم وعلى كتب الغريب والنوادر مثل «حجارة الأزارق» (ص 87) وفعل «شاحل» (ص 376، في معنى خاصم؟) في هذا الشطر (منسرح) :

..... وإن تمشاحل فهذه جرم

والنص المحقق لا يكفي أن يكون مقروءا، ينبغي أيضا أن يكون مقنعا مفهوما، والأمر أدعى للحيرة إذا كانت الكلمة المجهولة هي من اختيار الناشر، أتى بها بديلا لكلمة الأصل، مثلا (كامل) :

فكأنّ هامهم غمود للظّبى عند اللقاء، وللسهام ضبير

(ص 222) فعوّض بضبير كلمة «حفير» والمعنى لا يتّضح بهذه ولا بتلك، وفي هذه الحالة يحسن أن ينبّه القارئ إلى بقاء الغموض فيعمل فكره بدوره. وقد يأتي البديل بعيدا عن السياق (بسيط) :

[زجوا] عن الغمض منك الجفن [وانتبروا]

(ص 372، هـ 4 / 5) فالمتوقّع : زجروا عينك عن الغمض الخ...، إلا أنها لا توافق الوزن، أمّا انتبر فلم نجدها. ولكن أغلب اجتهادات الناشر صائبة وجيهة، ولاتفتقر إلاّ إلى شيء من الاحتجاج لها.

• • • • • •

ومن التحلية النقديّة : تخريج الحديث النبويّ أو الأثر من كلام السلف أو الشاهد من الشعر المحفوظ والمثل السائر. هنا أيضا قام الدكتور الترغي بهذا الواجب فنبّه إلى النقل والتضمين والاقتباس، مثلا التلميح إلى الآية 79 من سورة الكهف في هذا الشطر (كامل) :

.... ملكا * لأخذت كل سفينة غصبا

(ص 257، هـ 1) وأشار باقتضاب إلى حديث التسلسل بالمشابكة (ص 243، هـ 1) وخرّج هذا البيت القديم من قاموس الحسن اليوسيّ (سريع) :

إن عـادت الـعـقـرب عُـدنـا لـهـا وكـانـت الـنـعـل لـهـا حاضرة

(ص 228، هـ 3). ولكنّه سها عن الإشارة الواجبة في مواضع كثيرة، وهو مستغرب من هذا الباحث الجادّ الذي برهن تحقيقه ومقدّمته وفهرس مراجعه على سعة أفقه وثراء ثقافته، وفي رأينا أنّ سكوته عن بعض التلميح وإعراضه عن شرح بعض المفردات أو توضيح بعض الأحداث التاريخيّة أو كشف الشاهد والمثل لا يعزى إلى نقص في الرصيد، بل إلى الاقتصاد في التعليق، كأنه يخشى أن تغلب الحواشي والهوامش متن الكتاب كما يقع كثيرا عند الذين يسوّدون أسافل الصفحات بالتنبيه الفضوليّ ويفسّرون «الماء بعد الجهد بالماء». ونحن لا نوافقه على هذا التحفظ إن كان، لأنّ تحقيق الكتاب التراثي فرصة لتثقيف النشء وتعويده على ممارسة أمّهات كتبنا ومعالجتها بأمانة ودقّة وكفاءة، وصرفه شيئا ما عن بهرج الحداثة الموهومة حتى يقتنع بأنّ كلّ حديث صائر إلى قدم وأنّ القديم كان جديدا في وقته. من هذا السهو: إغفاله الإشارة إلى اقتباس من القرآن في هذا الشطر (طويل) :

.... فقل : سامريّ صاغ من عسجد عجلا

(ص 187) أو من المثل : تجوع الحرّة... في القصيدة نفسها :

وربّتما ماتت من الجوع حرّة ولم ترض أن تختار من ثديها أكلا

أو من قصّة أبي حنيفة مع جاره الذي يشكو الضياع كل ليلة «وما أهمل جاره ولا أضاعه» (ص 183) أو من بيت جرير المشهور (ص 187) :

وما ابن لبون الحرب يسطيع صولة إذا هو قد رام القناعيس والبزلا

فلو توسعّ مثلا في التعليق على رثاء خال ابن عسكر لأبي بكر بن صفوان (رقم 173 ص 367) وقد حشر فيها الشاعر أسماء الأعلام الغابرين من عاد وثمود، وطسم وجديس، ولبيد ولبد، والساطرون والمعافر، كما فعل الفزاري القيرواني في القصيدة

الفزاريّة، نقول : لو توسّع لأملنا أن نعرف من هو «ربيع» الذي يخشى المطر والرياح أو هي تغشاه (بسيط) :

وعن ربيع وما يغشاه من مطر ومن رياح أسفّته الدهارير

(ص 369 ولعلّها : أسفتها، والكلمة ملتبسة وزنا ومعنى بين الناقص والمضاعف). ولعلّ السكوت راجع إلى ثقة الناشر بقارئه المغربيّ أو المغاربيّ في ثقافته التاريخيّة، لذلك لم يؤرّخ لنا كائنة العقاب أو المريّة أو غزوة ماردة.

ومن التوضيح المفيد للهاوي وللمختصّ على السواء : الإشارة إلى صيغ من الكلام تخرج عن المألوف حتى لكأنها خاصّة بالأندلس أو المغرب : فالناشر نفسه يجمع بعض على «أبعاض» (ص 46)، وصاحباه يفضّلان ميهوب على مهيب (ص 176) ويشيدان بالرجوليّة إلى جنب الرجولة (ص 331 و176) ويختصران البيوتات إلى البيتات (ص 243)، وإذا طلب القوم الرئاسة لواحد منهم «خاطبوه» (ص 361)، فهذا الانزياح جدير بوقفة قصيرة.

كما نسجل باهتمام أنّ إلصاق اللاحقة «ون» باسم الشخص مثل تحويل حفص إلى حفصون وحزم إلى حزمون (ص 316) ليس يقصد منه الملاطفة ولا التصغير بل التعظيم (قال : ففُخِّم فقيل : حفصون ص 325)، فعليهما نقيس زيدون وعبدون وخلدون الخ.

وفي لغة الكتاب ظاهرة تسترعي الانتباه : ضم صفة الحاجّ إلى اسم الشخص أو كنيته : كان يعرف بالحاج عتيق (ص 285) وهذا الحاج أبو إسحاق إبراهيم (ص 123) كان حاجّا فاضلا (ص 161)، والظاهرة نجدها عند المقري أيضا : قال لي الحاج أبو عبد الله... (نفح الطيب ج5 ص 257). نعم، نعرف أنّنا في المغرب العربيّ نتوق دوما إلى أداء الفريضة ولو راجلين، وكلّ حارس مغربيّ في بيت أو ضيعة يدعى الحاج فلان، ولكنّ هذا التلقيب – وقد صار يطلق عندنا بتونس على من حجّ وعلى من لم يحجّ – لم يتسرّب إلى الكتب ولا رأيناه مثلا في كتب صلحاء القيروان

كرياض النفوس أو معالم الإيمان. فهل كان للحج شأن خاص عند الأندلسيين ؟ فهنا أيضا يحسن التنبيه.

* * * * * *

وبعد، إنّ تحقيق الكتب القديمة ليس أمرا هيّنا خصوصا إذا غابت مخطوطاتها أو انخرمت وتآكلت، والمحقق الجدّي يظلّ ممزّقا بين الواجبين الذين حصرنا فيهما «الحلية النقدية». لكنّ الدكتور الترغي نجح في المهمتين، ونحن، لئن توقفنا عند بعض النقائص، فتنبيها للناشر وإسعافا له يوم يعدّ طبعة ثانية للكتاب وهي آتية بدون شك، والله ولي التوفيق ./.

بريد المجلة

I - ملاحظات الدكتور محمد اليعلاوي على العدد 21 من مجلة دراسات أندلسية

1) حول بحث الأستاذ عبد المجيد الغنوشي : شرح لغوي لعنوان كتاب «فصل المقال» لابن رشد بالعربية ص59 وبالفرنسية ص32.

في اللغة وفي القرآن : القول الفصل هو القول الحق «الآية 13 من سورة الطارق» وفي التاج : الفصل هو القضاء بين الحق والباطل ومنه الفيصل للحاكم العادل. وقال الراغب في مفرداته : فصل الخطاب : ما فيه قطع الحكم، ويوم الفصل : يُبيَّن فيه الحق من الباطل. وابن رشد يدعي أنه بكتابه هذا فصل نهائيا بين الحق والباطل في خصوص قضية العلاقة بين الشريعة والحكمة. فصار كتابه عمدة في هذا الموضوع يغني عن غيره من الكتب. وسواء أثبتنا عبارة «تقرير» أم أسقطناها، فالمعنى لا يتغير: إن الكتاب يبحث في الصلة بين الدين والفلسفة ويقول القول الفاصل.

2) حول بحث الدكتورة حياة قارة : نبذة من شعر أبي عبد الله الرصافي البلنسي ص 21 : ص 28 حرف الباء «بيت 1» :

الخطأ:	يسعى وصعب من الأرماح في يده	كأنه لوُقود الحرب محتطب
الصواب:	يسعى وصعب من الأرماح في يده	كأنه لوَقود [1] الحرب محتطب

(1) وَقود الحرب لا وُقود : لأن المقصود الاسم أي الحطب لا المصدر والخطأ في الوافي أيضا : ج29 ص234.

ص 29 حرف الدال بيت 1 :

الخطأ : بانةَ الجزع هل لديك وفاء فَيُداوِي جوى ويحفظ عهد

الصواب : بانة الجزع هل لديك وفاء فَيُداوَى جوى ويحفظ عهد

ص29 حرف الدال بيت 3 :

الخطأ : بانة الجزع كيف آمل بقيا أمل لاعبٌ وسوق مجدّ

الصواب : بانة الجزع كيف آمل بقيا أمل لاغِبٌ [1] وسوق مجدّ

صفحة 30 حرف الراء «بيت 1» من مراجعة أبي عبد الله الرصافي البلنسي :

الخطأ : يضيء بعيني كل ما شق لحظها إذا أفقي يا ابن الأغر أنارا

الصواب : يضيء بعيني كل ما شق لحظها إذا أفقي بابن الأغر أنارا

صفحة 30 حرف الراء «بيت 3» من مراجعة أبي عبد الله الرصافي البلنسي :

الخطأ : إذا أتلفت منا النفوس سجية فما ضرنا في أن نُشَتِّت ديارا

الصواب : إذا أتلفت منا النفوس سجية فما ضرنا في أن نُشَتَّتَ دارا

صفحة 30 حرف الراء «بيت 8» :

الخطأ : رجاحة عِلْمٍ صادف النبل عنده مكانا فكانا معصما وسوارا

الصواب : رجاحة حِلْمٍ صادف النبل عنده مكانا فكانا معصما وسوارا

صفحة 31 «بيت 17» :

- في العجز يمكن أن نقرأ عوض «أَلْقَيتَ» : «أُلْقيتَ».

- في السطر الأخير،نقرأ مستنجزا عِدَتَهُ «المرة من وعد» عوض «مستنجزا عُدَتَهُ».

---

(1) اللغب : التعب.

صفحة 32 «المقطوعة الأولى» :

الخطأ : فتى كلما استعرضت بالخير ذاته زكت مثل ما خَلُصت من سبكه التبرا

الصواب: فتى كلما استعرضت بالخُبْرِ ذاته زكت مثل ما خَلَصَتْ من سبكه التبرا

صفحة 32 القصيدة الثانية «بيت 2» :

نقرأ في الصدر «مَسَحَتْ علي عَيْنَيْ» عوض : مَسَحَتْ عَلَى عَيْنَي.

صفحة 32 القصيدة الثانية «بيت 7» :

نقرأ في العجز «من اَلنَّورِ مُفتَرًا» عوض : «من النُّورِ مفترًا».

صفحة 33 :

السطر ما قبل الأخير نقرأ «عصره» عوض : «عصرهه» (خطأ مطبعي).

صفحة 34 (المقطوعة الثانية) بيت 1:

نقرأ في العجز «مَهَاوٍ يُمَدُّ» عوض «مَنَا وَيَمُدُّ».

صفحة 34 (المقطوعة الثانية) بيت 2 و 4 :

قراءة الدكتور مصطفى الغديري يجب أن توضع في المتن ويوضع الخطأ في الهامش «انظر التعليق 3 و 4 من ص 35».

صفحة 34 بيت 6 :

نقرأ «تتَوَارَثُهَا» عوض : «تَوَارَثُهَا».

صفحة 35 حرف الميم بيت 2 :

نقرأ «فقَد خَلَعَتْ» عوض : «فَلَقَدْ خَلَعَتْ».

صفحة 35 حرف الميم بيت 4 :

نقرأ «لاَ يَبْقِ الرَّبِيعُ» عوض : «لاَ تُبقِ».

صفحة 37 : بيت 13 :

اقتباس من سورة الأنبياء «الآية 79» : فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ.

صفحة 38 بيت 25 :

نضيف إلى التعليق 11 : المرّان وهو الرّماح.

صفحة 38 بيت 26 :

نقرأ تَتَثَقَّفُ عوض : «تَلَقَّفُ».

صفحة 38 بيت 29 :

نقرأ «مُنْصُلَهُ» عوض «مَنْصُلُهُ».

صفحة 39 بيت 39 :

- نقرأ «أَنْبَتُمْ» عوض : «أَتَنْبَتُمْ» في الصدر.
- نقرأ «عَذَلٌ» عوض : «عَذْلٌ» في العجز.
- نقرأ «المَثَلَيْنِ» عوض «المُمَثَّلَيْنِ»، في التعليق عدد 20.

صفحة 39 : بيت 45 :

نقرأ «تُثَنِّيَ» عوض : «تُثَنِّي».

صفحة 39 بيت47 :

نقرأ : «يُرَى» عوض «يَرَى»

صفحة 39 بيت 49 :

نقرأ «غرناطة شُغِفَت» عوض «شُغِفَت غرناطة».

صفحة 40 بيت 60 :

«الظُّبَى» عوض «الظُّبَا».

II – حول مقال الأستاذ سليم ريدان : «في التعامل مع التوابع والزوابع لابن شهيد»

بقلم د. يونس شنوان «الأردن»

قرأت بحث الأستاذ سليم ريدان القيم : « في التعامل مع التوابع والزوابع لابن شهيد وتعدد روافدها» المنشور في مجلتكم الغرّاء « دراسات أندلسية» عدد 18 جوان 1997م صفر 1418هـ. وقد أفدت من ذلك البحث الجاد، ورأيت أن أقف عند ما خلص إليه الباحث.وهو فيما أرى محل نظر إذ يقول في خواتم بحثه : ص 25 «أما أبو إسحاق بن حُمام فيبدو أن الاسم من وضع ابن شهيد إذ لا يوجد في عصر أبي عامر أديب يحمل هذا الاسم، [وأرى أن القطع على هذا النحو غير جائز ويعيب الباحث الجاد، فهل استطاع الأستاذ أن يحيط علما بأدباء ذلك الزمان وبالكتب التي تحدثت عنهم؟ لا أقدر ذلك، ولا أظن أن الأستاذ الفاضل يدعي مثل هذا] وله من المنزلة عند ابن شهيد ما لهذه الشخصية». ويترتب على هذه الحقيقة المغلوطة نتيجة مغلوطة تنسف بعض أسس بحثه إذ يقول :«فصاحبه هو أبو الآداب وزهرة ريحانة الكتّاب» فكنية ابن حمام [أبو إسحاق] وكنية صاحبه ونعته (أبو الآداب وزهرة...) كل ذلك يحيل على الحصري وكتابه المعروف ... إلخ.

والحق أن الوزير الكاتب «أبو إسحاق بن حمام» شخصيته حقيقية، وقرطبي مثل ابن شهيد وليس من نسج خياله، وسأكتفي بشاهد واحد على ذلك من كتاب أبي الوليد الحميري «توفي قريبا من 440 / 1048» البديع في وصف الربيع [1] إذ يقول «وللوزير الكاتب أبي حفص بن برد في هذا المعنى [يعني وصف الربيع] قطعة نثر مقطعة من السّحر في رسالة كتب بها عند صَدَره من دانية إلى الوزير الكاتب أبي

(1) انظر الحميري : البديع في وصف الربيع، تحقيق د.عبد الله عبد الرحيم غيلان، ط. دار المدي جده 1918م، ص26.

إسحاق بن حمام، وقد خرجا متنزهين في ما يقرب مدينة قرطبة في زمن الربيع ». ثم يورد الحميري تلك القطعة، ويقول بعد ذلك [1] :«فجاوبه الوزير الكاتب أبو إسحاق بن حمام عن تلك المعاني بشكلها براعة وبزاعة، وعلى تلك الفصول بمثلها صياغة وصناعة، وفي آخر جوابه أوصاف في أصناف النواوير، وتشبيهات لأنواع الأزاهير تعجب متأمليها، وتعجز «متتبّعيها» ثم يورد الحميري نص الوصف ويتبعه بتعليقات له. فلا صلة لأبي إسحاق بن حمام «زهرة ريحانة الكتاب» كما يسميه ابن شهيد بزهر الآداب للحصري، ولا هو شخصية متخيلة من نسج خيال ابن شهيد.

(1) المصدر السابق ص 27، ص 28.

القول بالقول

سليم ريدان كلية الآداب. منوبة

أشكر الأستاذ الكريم يونس شنوان على ما تداركه علي في بحثي المتعلق بابن شهيد وتوابعه في شأن أبي إسحاق بن حُمام. لقد اهتدى إلى ما لم أهتد إليه في أمره. على أنّي ما قلت ما قلته إلا وقد نظرت في معظم أمهات المصادر الأندلسية. لكن البحث في الأدب القديم له مفاجآته إذا تظافرت الجهود.

على أن في كلام الأستاذ ما يستدعي التعامل حسب مبدأ القول بالقول والإفادة بالإفادة... فهو يرى أن مجانبة الصواب في أمر هذه الشخصية وما تلاها من تحليل «ينسف بعض أسس البحث» على حدّ عبارته. «وأرى أن القطع على هذا النحو غير جائز» ولا أقول «يعيب الباحث» كما قال.

فإذا كانت مجانبة الصواب في ما يغمره الزمن الغابر ويطويه علينا يمكن أن يبرر بأسباب شتى، أهمها أن البحث في القديم نحت من صخر، فإن الشطط في تسليط الأحكام في أمور حاضرة جلية مكتوبة... لا مبرر له عندي سوى سبق اللسان وما إليه وهو من النفس... فهذه المعلومة التي أفادنا بها الأستاذ الجليل لا يترتب عن غيابها «نسف لبعض أسس البحث». فقد أوردتها زيادة في تأكيد إمكانية أن يكون ابن شهيد قد اطلع على بعض مؤلفات الحصري أو على شيء منها وأنّ الحصري لم يكن غائبا في خيال ابن شهيد. واستندت في ذلك إلى قرائن نصيّة ضبطتها في جدول. وما استنتجته منها لا يعدو الافتراض الذي يحتاج إلى مزيد النظر ويفتح للبحث آفاقا تؤكده أو تعدّل فيه.

فما تعلّق بهذه المعلومة في بحثي ينبغي تلافيه لا شك. ولا يغيّر ذلك شيئا من نتائج البحث. وهو متواضع لكنه ليس مما يصحّ فيه فعل «النسف» وهو للجبال ومن لغة الشدة والبأس. وما أكثرها في زماننا ! ألا نقتصد... ؟

وأخيرا أعبّر للأستاذ الكريم عن امتناني وأحييه.

2°) Pour ce qui est de mon Français qui, semble-t-il, a tant soit peu dérangé mon détracteur, je n'arrive pas, en toute sincérité à en saisir la cause. Mais puisqu'il en est ainsi, je le défie d'écrire une seule page correcte en Français sans se faire corriger par l'auteur de la restitution Arabe du De ANIMA !

Je ne dis pas que je sois à l'abri d'éventuelles fautes de Français ! Que Dieu nous en préserve. Le grand FLAUBERT en commettait ! N'avait t-il pas employé une fois l'indicatif après «bien que» dans ses «TROIS CONTES» pour ne citer que cette incorrection. Mais si cela m'arrivait, ce serait ou bien par inadvertance ou à desein, contre le mauvais oeil !

Mais toujours est-il, que je conseille à mon objecteur de s'assurer dorénavant de ses connaissances grammaticales pour formuler à bon escient ses critiques et a fortiori pour les présenter de façon précise et non pas grosso modo.

Enfin, J'exhorte M. YALAOUI à un peu plus de décence et de courtoisie dans la formulation de ses critiques. Car je ne pense que : la rue de four à la quelle il avait appartenu pour ses études d'arabe ne l'eût pas sorti à point !

En outre, je ne perds pas de vue, non plus, l'hétérogénéité du discours philosophique et du discours théologico-religieux et leur distinction essentielle que notre philosophe arabo-musulman IBN RUSHD, 6 siècle avant EMMANUEL KANT, avait mises en relief. N'avait-il pas déclamé «Ô HOMINES ! NON DICO QUOD VESTRA ISTA SCIENTIA DIVINA SIT FALSA, SED DICO QUOD EGO HOMO SCIENS SCIENTIAM HUMANAM» (Je ne dis pas que votre science divine soit fausse mais que je suis homme sachant d'une science humaine.) pour ne citer que ce propos puisé dans le «DE SENSU ET SENSATO».

C'est cette distinction et séparation des deux discours, philosophique et religieux, caractérisant la pensée philosophique d'IBN RUSHD, qui m'a guidé dans mon explication lexico-syntaxique.

Enfin, l'opposition structurale (FASL ≠ WASL, FISAL ≠ ITTISAL) que comporte le titre du dit traité vient corroborer de façon démonstrative mes explications précédentes.

Tout cela, évidemment, met la pensée philosophique d'IBN RUSHD à l'abri du confusionnisme et la soustrait à la contradiction. Pourtant, certains exégètes de cette pensée, pour ne pas dire tous, sans comprendre tout à fait ces aspects et sans les déceler nettement et clairement, en tirent un titre de gloire et y trouvent toute l'originalité du commentateur ! or, selon notre thèse, pour saisir la pensée philosophique d'IBN RUSHD - c'est - à - dire pour la comprendre de l'intérieur et dans son essence phénoménologique - on devrait tenir compte de plusieurs facteurs à la fois : lexicologique, syntaxique, philosophique, historique, sociologique, structuraliste... De la sorte, on ne verrait pas dans cette pensée ce confusionnisme et cette contradiction qui, par esprit de croisade intellectuelle encore vivace et tenace, continuent d'être interprétés comme une tentative décisive et scolastique de l'accord de la religion et de la philosophie ! alors que nous sommes bel et bien en présence du problème criticiste de la double vérité. C'est pourquoi lorsque l'on aurait compris tout cela est revisé surtout sa grammaire arabe, tout en se dessaisissant des idées préconçues, des préventions et de l'anticipation, comme le conseillait René DESCARTES, l'on serait à même de comprendre le titre de FASL AL MAQAL qui n'a rien à voir avec AL MAQAL AL FASL, n'en déplût à l'auteur du TAJ AL AROUS et par voie de conséquence à mon contradicteur !

NOTE EXPLICATIVE CONCERNANT LE TITRE DU KITAB FASL AL MAQAL WA TAQRIR MA BAYNA AL SHARI'A WA AL HIKMA MIN AL ITTIÇAL

PAR LE PROFESSEUR ABDELMAJID GHANNOUCHI
UNIVERSITE DE TUNIS I

REPONSE AUX OBJECTIONS DE M.YALAOUI.

1°) M.YALAOUI commence d'abord par critiquer l'explication que j'ai donnée du titre arabe du kitab FASL AL MAQAL. Seulement, pour ce faire, il se place au niveau lexicologique et cite le sens du FASL que lui fournit TAJ AL AROUS. Il eût pu se référer au LISAN AL ARAB, au QAMOUS, au SIHAH, au KITAB AL AYN, au MUHIT etc... il n'aurait pas, pour autant, avancé d'un pouce pour comprendre la signification exacte de ce traité ! Elle ne se trouve pas dans les dictionnaires ! Car le problème est autre et ailleurs !

En effet, mon explication se situe non seulement au niveau lexicologique mais aussi au niveau syntaxique et plus précisément au chapitre relatif à l'état d'annexion du Masdar à son complément. Indubitablement, le Masdar peut être annexé soit à un nom sujet ex : la sortie des élèves, soit à un nom complément ex : la réparation du mur.

Mais le même nom peut parfois être considéré sous deux perspectives différentes c'est-à-dire sujet et complément, comme dans le célèbre exemple latin de nos jeunes années : METUS HOSTIUM i.e. la crainte des ennemis. Ennemis est considéré tantôt comme sujet et tantôt comme objet, selon le cas, du verbe craindre impliqué dans le non d'action «crainte».

Il en est de même du titre de l'ouvrage d'IBN RUSHD : FASL AL MAQAL. Maqal peut être, selon le cas, sujet ou objet du verbe FASALA, impliqué dans le nom d'action FASL. MAQAL étant sujet signifie alors: TRAITE DECISIF ; MAQAL ETANT OBJET signifie évidement séparation ou DISTINCTION DU DISCOURS.

Or, pour le cas qui nous intéresse, il y a lieu de prendre FASL AL MAQAL dans la perspective où il signifie séparation et distinction du discours : c'est le cas du MASDAR annexé à son complément.

De l'histoire de la Médecine Arabe
en Ifriqiyya

Zãd al – Musãfir

(Le viatique)

le livre VI

Des maladies des organes génitaux

par

Abu – Ja'fãr Ahmad Ibn al-Jazzãr

(284-369 H / 898-980 J.C.)



Texte
Etabli, annoté, et introduit
Par

RADHI JAZI *JOMÂA CHEIKHA*

Tunis 1999

Su amplia biblioteca ofrece a los lectores, además de sus casi 20.000 libros, diversas bases de datos informatizadas (bibliografía española, ISBN, cursos de español en España, información al universitario, CSIC, etc.), vídeos documentales y de cine español, revistas especializadas, prensa diaria, música y arte.

Entre sus actividades recientes, podemos destacar el ciclo de tertulias literarias dedicadas al escritor Jorge Luis Borges en el centenario de su nacimiento, el concurso de pintura organizado con el Instituto Superior de Bellas Artes de Túnez, con motivo del centenario de Velázquez, los encuentros con el escritor Juan Goytisolo y la participación del grupo « Mudéjar » en el Festival de la Medina.

EL INSTITUTO CERVANTES DE TÚNEZ

Por Francisco Corral
(Director del Instituto Cervantes de Túnez)

El Instituto Cervantes es la institución oficial española creada en 1991 para promover la enseñanza, el estudio y el uso del español en todo el mundo y contribuir a la difusión de la cultura de los países hispanohablantes.

Actualmente, el Instituto Cervantes extiende su acción a más de veinte países donde desarrolla y consolida un modelo dinámico, moderno y homogéneo para la difusión de la lengua y la cultura españolas, además de hacerse presente en los más recientes foros de comunicación y diálogo intercultural.

El « Centro Virtual » (cvc.cervantes.es) que el Instituto Cervantes ha abierto en Internet constituye una referencia fundamental en la red sobre la lengua española y sus expresiones culturales. En sus páginas se puede encontrar una amplia información sobre las actividades de todos y cada uno de los Institutos Cervantes, noticias para hispanistas, foros de discusión, y próximamente un « Aula Virtual » donde los interesados podrán seguir un curso de español desde su ordenador.

En Túnez, el Instituto Cervantes tiene su sede en un atractivo edificio situado en el n°.120 de la Avenue de la Liberté, una de las principales vías céntricas de la ciudad.

En sus aulas, equipadas con los materiales y medios audiovisuales idóneos, un selecto equipo de profesores imparte una enseñanza de la lengua española que responde a los más de 700 estudiantes de español.

En su sala de usos múltiples, o en otros espacios de la ciudad, el Instituto Cervantes de Túnez desarrolla una variada programación de actividades culturales en la que se contemplan tanto las expresiones de los países hispanohablantes como las de la cultura tunecina. Para la realización de estas actividades cuenta con el apoyo de la Agencia Española de Cooperación Internacional y de diversas instituciones públicas y privadas.

La voz que emanaba de las instalaciones electrónicas, llegaba a los oídos de los visitantes, explicando y aclarando en la mayoría de los idiomas internacionales menos la lengua árabe.

Por suerte, Averroes entendía perfectamente la lengua romance con la cual ha reprochado al ministro : ¿ No es fidelidad a nuestros bisabuelos - que también son suyos - los que fundaron esta prestigiosa civilización en sus varios aspectos, literarios, artísticos y científicos, introducir con los demás idiomas la lengua árabe que da vida al alma del visitante - aunque no hable esta lengua - para encontrar el espíritu oriental con sus valores del amor, de la justicia y de la belleza, por la cual sería más dependiente de estos ambientes andalusíes, con todo lo que tiene de poesía, hermosura y encanto ?

En cuanto Averroes ha pronunciado la palabra «encanto», se ha acordado de algo importantísimo y se ha despedido de su excelencia el ministro diciéndole : hasta el año 2098 y ha desaparecido.

Así, cesó al efecto de la magia con el cual pueda Averroes volver a la vida, una hora al día de cada siglo a partir de la fecha de su muerte. Esta vez, su resurrección ha coincidido con la visita de su excelencia el ministro de cultura.

Dr. Jemâa Chikha.
traducido por el prof. Taha Driss.

evitar el maltrato que no merecen los semejantes del profesor Gazi Gasnafar [1] uno de los participantes en el coloquio celebrado en mi honor [2], cuando este último intentó- él que es musulmán - practicar la salutación de la mezquita.

Averroes ha mirado a las atractivas turistas sentadas con sus compañeros y compañeras en los bancos que rodean la mezquita y ha agregado: Señor ministro, otro cartel más que prohiba el consumo de bebidas alcohólicas en las cercanías de la mezquita, no sería más provocador que el que prohibe fumar en los lugares públicos. Estoy convencido de que lo que daña al verdadero fiel musulmán, lo mismo daña al verdadero fiel cristiano.

Luego, el filósofo ha acompañado a su excelencia el ministro hacia el puente del Guadalquivir y le ha detenido un rato para contarle la historia del poeta cordobés YUSUF ERRAMADI, de cómo perseguía a una hermosa esclava, de la cual se enamoró desde la primera mirada en el zoco de perfumes ; el ministro los ha sonreído y ha invitado a Averroes a entrar al museo andaluz que se ha erigido en una extraordinaria fortaleza al final del puente. Juntos han visitado todos los pabellones del museo, subiendo escaleras en forma de espiral, parecidas a las escaleras de los minaretes. Deslumbrado, Averroes ha visto como se unían los progresos científicos, históricos y tecnológicos para dar nueva vida al patrimonio árabe y presentarlo de una manera magnífica durante una hora, recorriendo de este modo ocho siglos de civilización andalusí.

Las voces, las luces y la música se juntaban en el ámbito de este museo para llevar al visitante sobre las alas del tiempo a descubrir cómo se movía la ciudad de Córdoba durante la edad media científica y económicamente sin olvidar su civilización, y también ve a sus máximos gobernantes en su lujo, su historia y su grandeza.

---

(1) profesor de origen paquistaní, trabaja en una de las grandes universidades fuera de su país.

(2) A finales del año pasado (1998) se organizó, en Córdoba un coloquio científico sobre Averroes que culminó otros coloquios organizados en diferentes países con la celebración del octavo centenario de su muerte.

PRÉSENTACIÓN
AVERROES Y SU EXCELENCIA EL MINISTRO DE CULTURA

En la fascinante ciudad de Córdoba, y no muy lejos de su gran mezquita, se ha erigido un monumento conmemorativo dedicado a Averroes ; precisamente cerca de la antigua muralla de la ciudad.

Mediante este monumento suyo, permanecerá el filósofo dialogando con toda persona que comparezca ante él, y entre ellas - sin duda alguna - el primer responsable de la cultura en la comunidad Autónoma de Andalucía.

Además y de repente, Averroes ha resucitado y ha acompañado al ministro por respeto y cortesía, hacia la gran mezquita de Abderrahman I.

Al llegar, Averroes se ha dirigido a su excelencia el ministro con todo el respeto propio a los gobernantes y le ha dicho : no he visto esta mezquita desde hace un siglo, ha permanecido como verdadera obra maestra del arte árabe y una de sus perfecciones en el marco arquitectónico y lo sigue siendo, como consecuencia de su cuidado incesante ; desde que usted ha considerado el patromonio andaluz una parte indivisible de su historia y origen de su orgullo. De este modo, usted ha abierto las puertas a cada visitante sin distinción de sexo o de religión para visitar tanto la mezquita como la majestuosa iglesia que se ha construido en una parte de ella.

Si durante esta etapa histórica de tolerancia entre las religiones, usted ve que es imposible permitir a unos visitantes musulmanes rezar en esta mezquita, que se trate por lo menos a quien ha fallado entre ellos y ha empezado a orar sin mala intención, con el trato que conviene a este lugar donde ne adora a Dios con amor sincero y corazón humilde.

¿ No son el amor y la humildad dos elementos básicos tanto para la medialuna como pura la cruz ?

Si ahora eso es imposible, que se coloque por lo menos un cartel en diferentes idiomas (entre allos el árabe) que explique que, por el momento, este lugar no está capacitado para la oración, a fin de

ISSN : 0330-7549

REVUE D'ETUDES ANDALOUSES

N° 22

Juin 1999 / Rabí' al - 'awwal 1420

Tunis